شرحُ الإسلام بالعلم

سؤال: لقد انتشر في أيامنا الاستعانة بالعلوم الحديثة في شرح الإسلام، كيف تنظرون إلى هذا الأمر؟

الجواب: أجل، لقد اعتدنا في أيامنا الراهنة على التدقيق في فروع العلم المختلفة، وجعلنا من كل فرع عدسةً ننظر بها إلى الحوادث والأشياء، بل وإلى المسائل الدينية، بل وراعينا المنهج نفسه عند شرح هذه المسائل، فمثلًا عندما نقول: "إن الله تعالى موجود" نقول إن علم الفيزياء يشير كموضوع علمي بحت إلى وجود الله تعالى، وإن علم الكيمياء بطبيعته وهويته الخفية يرمزُ ببعضِ تفاعلاته وتركيباته إلى الشيء نفسه، وإن علم الفيزياء يُعلن في مُعادَلَةٍ كذا عن وجود الله تعالى... إلخ.

وأحيانًا ما نأخذ هذه العلوم جميعها والحوادث الجارية على مستوى الذرّة وعلى مستوى المجرات، ونفتِّش عن الأدلة التي تبرهن على وجوده سبحانه وعلى وحدانيّته.

لقد سبق وأن قرأتُ كتابًا بعنوان "الطبّ محراب الإيمان" فأعجبني العنوان كثيرًا، إذ إنني لا أتصوّر أن يَدرس أيّ إنسان علم الطب ثم لا يؤمن بالله، ففي محراب هذا العلم هناك مسائل إيمانية عديدة؛ ذلك لأن الإنسان مخلوقٌ بدقّةٍ مذهلة تُحيّر العقول وعلم التشريح يبين هذا، فإذا أنعمتَ النظَرَ إلى أيِّ عضوٍ من أعضاء الإنسان ذُهلتَ من روعة تركيبه، فلا تملك إلّا أن تقول: "الله أكبر"، وهكذا فالطبُّ محرابُ الإيمان حقًّا.

عادةً ما نقوم بتفسير ديننا استنادًا إلى علوم مختلفة، ونستعمل العلوم كوسيلةٍ لِجَلْبِ الأنظار إلى إعجاز القرآن، فمثلًا نرى أن المراحل التي يعيشها الجنين في بطن أمه موضَّحة في القرآن، وتتطابق تمامًا مع المراحل التي توصَّل إليها العلم الحديث، فكيف كان باستطاعة شخص أميّ صلوات ربي وسلامه عليه أن يصل إلى هذه الحقائق العلمية قبل أربعةَ عشرَ قرنًا من الزمان دون أن يملك الأجهزة الحديثة وأجهزة الأشعّة السينيّة -الكهرومغناطيسيّة- التي لولاها لَما أمكنَ الوصول إلى معرفة هذه المراحل؟ فلو كان هذا الأمر متعلِّقًا بقدرة إنسانٍ لَما كان ممكنًا، إذًا فالقرآن الكريم لا يمكن أن يصدر عن الرسول ﷺ وكل هذه الأدلة العلمية تُفضي إلى أن القرآن هو كلام الله تعالى، وعندما نُبَرهِن بالأدلة على أن القرآن هو كلام الله، فإننا نبرهن أيضًا على نبوة محمد ﷺ وهكذا نستطيع تناول المسائل الأخرى للإيمان على هذا المنوال.

ولكوننا فصّلنا الكلام بشكلٍ مستقلٍّ في موضوع إعجاز القرآن فإننا نكتفي هنا بهذا القدر ولا نرى حاجةً للتفصيل ولكننا نريد هنا أن نقول:

إننا نرجع إلى مختلف العلوم ونشرح ديننا بواسطتها؛ لأن عقل الإنسانية الآن مرتبطٌ بها، وأعداء الدين من أصحاب الفكر الماديّ يحاولون استغلال العلم والتقنية كوسيلة للإلحاد والإنكار؛ لذا فنحن مضطرون لاستعمال السلاح نفسه لإزالة الأوهام والشبهات التي تجول في أذهان الذين تكدّرت عقولهم واسودت نظراتهم بسبب هذا التضليل، وإثبات أن العلم لا يناقض ولا يعادي الدين، وبعبارة أخرى: إن علينا إزاء ما يقوم به الماديون من أمثال "ماركس" و"أنجلز" و"لِينِين" من استغلالٍ للمادة وجعلِها واسطةً للإنكار والإلحاد أن نستعمل المادةَ نفسها كأداةِ إثباتٍ وبرهنة على صحة الدين.

وأنـا لا أجـدُ أيَّ حـرج فـي هـذا الأمـر، بل إننـي أدعو رجـال العلم المؤمنيـن فـي أيامنا إلى إعداد أنفسـهم إعدادًا يُؤهّلهـم للحديثِ عن مثل هذه المسائل في راحةٍ تامّةٍ؛ لأن آيات القرآن الكريم تأخذ بِأيدينا وترتقي بنا إلى السموات، وتجول بين النجوم والمجرّات؛ لتعرّفنا ببدائع الصنائع ممـا فيهـا وعظيـمِ قدرتِهِ وسـلطانِهِ جلّ جلالـه، ثم تجول بنـا بين الناس، وتلْفتُ أنظارنا إلى أعضائنا وروعتها، وتبسط أمام أنظارنا الوجود بأكمله، وتعرّفنا بالوضـع التشـريحي للإنسـان، ثمّ تمتدّ هـذه الرحلة الطويلة حتى عالـم الـذرات، وتذكّرنا بـأن العلماء هم الذين يخشَـون الله حقًّـا؛ فتحثُّنا وتُشـوّقنا إلـى تحصيـل العلم، وتؤكّد على مسـائل علمية أخـرى، وتدعو الإنسان إلى التأمّل والتفكر في ملكوت السموات والأرض، وبالطبعِ فإنّ كلّ هـذا يجـبُ أن يُؤَطّرَ بإطار روح القرآن، وإلّا نكـون قد قُمنا بتحريف القـرآن باسـم القـرآن، لذا فهناك نقـاطٌ يجب أن نضَعها نُصـبَ أعيننا من ناحية المنهج، وهي:

أولًا: يجب استعمال هذا الأسلوب في شرح حقائق الإسلام كوَسيلة وأداة فقـط، والابتعـاد عـن محاولة اسـتعماله لإظهار عِلمنـا والتّفاخر به؛ لأن المعادلـة تُقلَبُ آنذاك، ولن يكون لكلامنا أيّ تأثير على المسـتمعين، فهـذه الحقائـق النورانيـة الخارجة من أفواهنـا تَفْقد أنوارهـا وترجـع إلينا كالِحة متناسـبة تناسُـبًا عكسـيًّا مـع نيّات قلوبنا، وإذا كان كلامنا موجَّهًا لا لإقنـاع المخاطبيـن بل لإلجامهـم وإفحامهم فإننا لن نكـون مؤثّرين فيهم ألبتـة؛ لأننا سـددنا الطريق للنفوذ إلـى قلوبهـم، وإنْ تصرفنا بعكس ذلك اسـتفاد الذين يحتاجون إلى هذا الموضوع من المسـتمعين دون أن نشعر، لأننـا فـي هذه الحالة نحمـل نيّة إيصال الحقائق إلـى الآخرين لا نيّة إبرازِ أنفسـنا، وأحيانًا ترى أن حديثًا بسـيطًا منك تعتقد أنك لم تُوفِّه حقَّه قد أثَّر

في نفوس الحاضرين أكثر من خطبةٍ بليغةٍ نمَّقْتَها في مُناسبة أخرى، إذًا فإن الغاية الوحيدة عند شرح هذه الموضوعات هي تحصيل مرضاة الله تعالى وتقديم الحقائق بما يتناسب مع مستوى المخاطبين.

ثانيًا: علينا أن نتخلّى عن عقدة الشعور بأن الجميع يتكلّمون عن العلم وعن التقنية، وألا تكون هذه العقدة أُسَّ شرحِنا للقضايا الإسلامية، فهذا أمرٌ غير صحيح ألبتة، لأن التهالك في تناول هذه القضايا -كما لو أننا نرتاب في مبادئنا فنستعين بهذه العلوم لتقويتها- أمرٌ يُشكِّل عدم احترام الحقائق التي نؤمن بها، فضلًا عن ذلك فإن اعتبارَ العلم والتقنية أصلًا ثابتًا ومبادئَنا شيئًا تابعًا يحتاج إلى تصديق العلم أمرٌ غير مقبول على الإطلاق.

نستطيع تلخيصَ الموضوع كما يأتي: إن العلوم تُعدّ وسائل لإزالة الغبار المتراكم على الحقائق الكامنة في ضمائرنا، أما إن اعتبرنا ما تشير إليه هذه العلومُ حقائقَ -والعياذ بالله- وجعلنا الآيات والأحاديث تابعةً لها، وتعسّفنا في التأويل والتفسير لكي تتطابق الآيات والأحاديث معها، فإننا سنسوق أنفُسَنا ومخاطبينا إلى الشكّ والارتياب فيما لا يتمّ الاتّفاق عليه من المواضيع.

بينما يجب أن يكون أسلوبنا كالآتي: إنّ كلام الله تعالى وكلام رسوله حقّ لا ريبَ فيهما، والعلوم صحيحةٌ بقدر تلاؤمها معهما، وغير صحيحةٍ بدرجة انحرافها عنهما، وحتى القسم الصحيح من العلوم لا يُعدّ قواعد أو مستندًا تستند إليه الحقائق الإيمانية؛ غير أنها تلعب دورًا في زيادة التأمّل والتفكّر في المسائل الإيمانية ليس إلّا، أما ما يرسّخ هذه الحقائقَ الإيمانيةَ في قلوبنا فهي يد الهداية الربانية مباشرة، وهذه النتيجة التي تتحقق بفضل نعمة الله لا يمكن استشرافُها من العلوم، ومثل هذا التوقع

والأمل والاستشرافِ يضرب حياتنا القلبية والروحية فيُصيبُ منها المقتَلَ، بحيث لا يفلح بعدها مَن تلقّاها؛ ذلك لأن مثل هذا الشخص الذي يقضي عمره في جمع الدلائل الكونية ويحاول أن يجعلها تتحدث باسم الله سيظلّ دون أن يعيَ مرتبطًا بالطبيعة وقوانينها المادّية ومفاهيمها، سينظر إلى الماء وسينظر إلى جمال الربيع، ولكن لن تنبت في قلبه نبتة إيمانٍ خضراء، ولن يحسّ طوال عمره بوجود الله تعالى في وِجدانه ولو مرةً واحدةً خارج الأدلة التي جمعها، ومع أنه قد يبدو في الظاهر وكأنه ليس من "الطبيعيّين" إلا أنه يقضي عمرَه كله كـ"طبيعيّ (*Naturalist*)".

لذا يجب النظر إلى العلوم وإلى جميع الأدلة العلمية وعدُّها تابعةً واعتبارُها وسيلةً لإزالة الغبار فقط عن الحقائق، وعندما ينفث الشيطان وسوسته في الصدر يمكن الرجوع إلى هذه الأدلة لإزالة هذه الوسوسة؛ لأننا نقول بأنّ نور الإيمان في قلوبنا راسخٌ وقوي وعميق لدرجة أن من يغنون في الظلام بل ومن يعظمون من شأن هذه المسألة في وضح النهار لن يستطيعوا ألبتّةَ أن يُؤَثّروا -بالسلب أم بالإيجاب- على هذا النور الذي نملكه في وجداننا.

فالإيمانُ لا يُناطُ بالمعلومات المتراكمة في العقل، وإنما بِقَرَارَةِ القلب، لذلك فإن ما يستطيعه هذا الإنسان المشغول بجمع الأدلة في الآفاق وفي الأنفس هو تحقيق قَفزة صغيرةٍ فقط، فإن لم يستطع الخلاصَ من هذا الأَسْرِ لم يستطع الترقّي في مدارج القلب والروح قطّ، أما إن نَحّى هذا جانبًا -بعد وصوله إلى مرحلة معيَّنة- وسار في نور القرآن وفي الطريق النوراني الذي رسمه قلبه ووجدانه؛ فإنه سيصل حتمًا إلى ما ينشُدُه من انشراحٍ قلبيٍ، يقول أحد المفكرين الغربيّين: "لقد شعرتُ أنّ

عليّ أن أضرب عرضَ الحائط بجميع الكتُب التي قرأْتُها لكي أؤمن بالله حقّ الإيمان".

لا شك أنّ كتاب الكون وكتاب ماهية الإنسان والكتب التي تشرحهما لها دورٌ كبيرٌ في هذا الأمر، ولكن عندما تقومُ هذه الكتب بإيفاء وظيفتها حقَّها، فعلى الإنسان أن ينحّيها جانبًا ويبقى وحده مع إيمانه، وكل ما شرحناه آنفًا مسألة تستند نوعًا ما إلى التجربة، والذين لم يمرّوا بتجارب وجْدانية لتعميق الإيمان قد يبدو لهم هذا الكلام شيئًا نظريًّا، ولكن الأرواح التي أضاءت لياليها وحلّقت في اشتياقٍ إلى ربّها سبحانه وتعالى تعي جيدًا ما نقول.

الإلفُ والعادةُ

سؤال: ما الأُلفة؟ وما تأثيراتها السلبية؟

الجواب: الأُلفة تأتي بمعنى التعوّد والصداقة والمحبة والانسجام، أما المعنى المقصود هنا فمع كونه ذا علاقة بهذه المعاني إلى حدٍّ ما إلّا أنه أكثر شموليّةً، فالأُلفة هي علاقة الإنسان بالأشياء والحوادث، والمعاني الناتجة عن أمثال هذه العلاقة بتَدَاعي الأفكارِ وترابطِها، وانعكاس هذه المعاني وهبوب نسيمها على أعماق النفس، ثم التغيرات التي تطرأ جرّاء ذلك على سلوكيات الإنسان، وهكذا فهناك سلسلةٌ متعاقبةٌ من الوقائع تتمخّض عنها نتائج تُبقي الروح حيّة نشِطة حساسةً.

أجل، إنّ حساسية الإنسان وإعجابه بجمال الوجود وجاذبيته، وتطلّعه وشغفه بالنظام العام الذي يعمل بدقّة تفوق دقّةَ الساعة، ثم زيادةَ خبرته ومعرفته بعد كل اكتشافٍ يَتوصل إليه، ووصولَه إلى التفكير المنهجي بعد ربط أجزاء معلوماته بعضها مع بعض... كل ذلك يشحذُ مشاعره إزاء الأحداث ويحرّك ذهنه ويجعله في فعالية روحية ويقَظة دائمة.

أما إن بقي الإنسان دون مشاعر أو أحاسيس أمام آلافٍ من لوحات الجمال والنظام، غير مبالٍ بالأشياء المتناغمة مع بعضها، لا يبحث عن أسبابِ وحِكَم ما يراه، بل يمرّ غافلًا، ويمضي جاهلًا، ولا تبلُغُ روحُه أيّ مستوًى للعرفان... فهذه أمارةٌ على موت أحاسيسه وروحه وعمى

بصيرتـه، فلا كتابُ الكون المليء بالأسـرار -بالنسـبة لهؤلاء- ولا انفتاحُ عوالم النفس الإنسانية أمام أنظارهم ورقةً ورقةً يعني شيئًا: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (سورة يُوسُفَ: ١٢/١٠٥)، لم يستفيدوا ممّا وقع، ولم يعتبروا بما هو واقعٌ وجارٍ.

إنّ مـن يَحْـدُسُ ويَفهم ما يحدثُ حوله، ويحـسّ بالإعجاب بالوجود وبالفضول حيال كنه أسـراره، يُشـبِهُ تمامًا مَنْ نَشـر شـراع سفينته في بحر لا نهايـة لـه، وهو في كلّ مرحلة من سـياحته هذه يحصـل على المفاتيح الذهبيـة لقصـور الأسـرار الخافية عنه، وكلّما سـار بقلبه النقي ومشـاعره الجياشة وروحه المهيأة لنسائم الإلهام أخذت بساتين الجنة في عالم فكره المليء بالجماليات في النمو والازدهار.

أما مَن لم يصل إلى هذا الفهم وإلى هذه الروح نراه يشكو على الدوام من الوتيرة الواحدة التي تسـير عليها الحوادث والأشـياء؛ لأنه لم يستطع الخـلاص مِـن أسـرِ ما اعتاد عليـه أو ما ألفه، فكلُّ شـيءٍ بالنسـبة لهؤلاء فوضـى وظـلام وبلا معنى: ﴿وَإِنْ يَـرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ (سـورة الأَعْرَافِ: ٧/١٤٦)، أي سُلسـلت عقولهم وغُلّت أرواحهـم: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُـونَ﴾ (سـورة التَّوْبَةِ: ٩/٨٧)، فلا ثمـرةَ ولا خيرَ يُرجى من هؤلاء، وانتظار أيِّ خيرٍ أو أيّ ثمرةٍ منهم أمرٌ لا طائلَ منه.

ثم إن الإنسـان ينغمر أحيانًا في الأُلفة بعد المعرفة والمشـاهدة، أو ما يُحسَـب ويظنُّ أنـه معرفة ومشـاهدة، وأعتقد أن السـؤال موجّهٌ نحو هذه النقطة، أي بعد الإدراك والمعرفة والتصديق والوصول إلى مسـتوًى معيَّن مـن العرفـان قد يفقد الإنسـان صلته بمـا حوله، ولا يأخـذ العبرة من أي شيء، على رغم العوالم التي تتغيّر والجماليات التي تتجدّد، وهذا يقتضي

مزيـدًا مـن التعمّق، غير أن ما يحدث هـو العكس، وهذا يعني والعياذ بالله سقوطَ الإنسان وموتَ مشاعره.

فإن لـم يُسـرع مَن اُبتلي بهذا إلى رفـع الغشـاوة عن عينيه بسـرعة وإن لـم يبـادر إلى تأمّلِ الحِكَمِ والأسـرارِ الموجودة في الأشـياء حواليه، وإن لم يُنْصِتْ بسَـمْعِهِ وقلبه إلى الرسـائل والإشارات الإلهية القادمة من الملإ الأعلـى، ويحـاول فهمها؛ فالمصيـر المحتوم أمامه هـو الموت المعنوي، والاحتراق الداخلي الذي يحوّله إلى فحم ورماد.

تأمَّـلْ سطـور الكائنـات فإنّـها

من الملإ الأعلى إليك رسائل

ولهـذا أرسـل الله تعالى خالقُ هـذا الكونِ المرشـدين الأصفياءَ دائمًا لإيقـاظ النـاس وتنبيههـم، وجهّزهم بلسـانٍ بيّنٍ وبآيات بيّنـات، وجعلهم يـردِّدون كلامـه الأزلي، فأضـاء القلوبَ ونوّر الأبصـار، وبذلك نبّه عقول وضمائر الذين سـجنوا أنفسهم داخل أسوار الإلْفِ والعادة، ووجَّههم إلى إعادة التأمّل في ملكوت السموات والأرض.

لذا فقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم وفي مواضـع عديدة وبعبارات وأساليب مختلفة كيف أنه خلق الإنسان وجعله في الأرض خليفة، وخلق له زوجه ليسكن إليها، وجعل بينهما مودةً ورحمة، ووجّه الأنظارَ إلى تأمُّل السـماوات والأرض، وإلـى عَظَمَةِ خلقهما، وإلى اختلاف ألسـنة الأقوام وألوانهم، وإلى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وإلى النعم التي يرسـلها مع الأمطار والبروق... أي إنه لم يبق هناك مجالٌ لأي ألفة لِمَن يستخدم عقله وعلمه وسـمعه وفكـره: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُـرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ**

بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الرُّوم: ٣٠/٢٠-٢٤).

إن البيان السماوي يبدّد الأُلفة بمئاتٍ من تنبيهاته وإرشاداته، ويلفت انتباهنا إلى آلاف الخوارق والمعجزات الجارية في الكون والتي تقع أمام أعيننا ونعجز عن إدراك كنهها، ولكن مع هذا يوجد مَن لا يستطيع سماع صدى الحوادث والآيات التي تغرّد من حوله وكأنها البلابل.

وهناك شيءٌ آخر في هذا الخصوص، وهو الأُلفة في الفكر والتصوّر، وهذا ينعكس على سلوك الإنسان وعلى عبادته، ومثل هذه الأُلفة والعادة يعني موت الوجد والعشق والانفعال لدى الفرد، وإنّ مَن ابتُلِيَ بها ليزول عنه -كُلِّيَّةً- الإحساسُ بالمسؤولية، والنفورُ من الإثم والبكاءُ على الآثام التي يرتكبها، ومن الصعب للغاية إرجاع مثل هذا الفرد إلى حالته الأولى، ولا يفيد معه سوى تذكرة طيبة ونقيّة لكي يعود إلى رشده من جديد ويرى ما حوله ويراقب خَطَراتِ قلبه.

وكلّ مرشد يأتي لتجديد الروح في الإنسانية كان ينفث فيها هذا المعنى، صحيح أن الإنسان قد يفقد عزيمته وتتبلّد مشاعره، ولكن تجديد نفسه ليس مستحيلًا، إذ يكفي أن تمتد إليه يدٌ بمبضع الجراحة لتسحَقَ هذا الجمود وتجدّد الدورة الدمويّة فيه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ

فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (سورة الْحَدِيدِ: ١٦/٥٧).

وخلاصةُ القول: إن الأُلفة بهذا المعنى تُعدّ مصيبةً كبيرة للإنسان وإن الكثيرين معرَّضون لها، والذي يقع فيها يكون غافلًا عما يحدث حواليه، أعمى عن الجمال الموجود في كتاب الكون، أصمّ عن صوت الحقّ من ألسنة الحوادث؛ لذا يكون إيمانه سطحيًّا وغير كافٍ، وعبادتُه باردةٌ لا وجدَ فيها ولا عشق، وتعاملاتُه البشَرية جائرةً لا يضع لها حسابًا، وإن خَلاصَه من هذا الحال مرهونٌ بامتداد يدِ عنايةٍ قويّةٍ نحوه لكي يرى ويسمع من جديد.

يحتاج مَن سقط في هاوية الأُلفة إلى تشجيعه على التأمّل العميق في الآفاق وفي الأنفس، وتذكيره بالموت ومشاهد الآخرة، واصطحابه إلى مؤسّسات الخدمات الإيمانية، وتشويقه إلى القيام ببعض المهمات والوظائف الإيمانية، واطلاعه على الصفحات المشرقة لماضينا، وجمعه مع أصحاب الفكر والثقافة وأصحاب الوجد والقلب لتتهيّأ له فرصة تجديد نفسِهِ هناك.

وإضافةً إلى الاقتراحات السابقة هناك اقتراحات ومجالات أخرى يمكن التفكير فيها والانتفاع منها، إلّا أننا نكتفي بما ذكرناه لكونه أعطى فكرةً ملخّصةً حول الموضوع، ندعو الله تعالى أن يُزيل الأُلفة والعادةَ من قلوبنا، فمفاتيح القلوب كلها بيده...

ثقافة القراءة

سؤال: كيف يمكننا أن نعوّد إنساننا على القراءة؟

الجـواب: هناك كلمة يرددها الجميـع حتى أَلِفَهَا السـامعون من كثرةِ سماعِها فَأَضْحَتْ لا تُحْدِث في القلوب وقعَها المناسب لمعناها ألا وهي: ﴿اقْرَأْ﴾ (سورة العَلَق: ٩٦/١)، أول أمر للإسلام.

اقرأ: يعني تعرّفْ على الماهيّة الإنسانيّة، ودقّق النظر في كتاب الكون، واقـرأ القرآن الـذي هو ترجمانٌ لكل ذلك... اطّلع على حياة رسـول الله صلى الله عليه وسـلم، وتوصـل إلى التركيبات الجديـدة، وافحص مرات ومرات النتائج التي توصلت إليها.

ابحـث في جميـع التجليات الدالّـة على الوحدانية، ارتـقِ كلَّ لحظةٍ درجةً في مراحل المعرفة، واقرأ باسـتمرار قائلًا: "هل من مزيد؟" بظمإ لا يرتوي بأي شيء، واقرأ كتاب الكون، وتعرف على ماهية الإنسان التي تُعَدُّ فهرسًا لهذا الكتاب.

وإن مـن يحـاول أن يقـرأ هذا الكتاب وماهيةَ ذلك الإنسـان في ضوء البيانات النورانية للنبي صلى الله عليه وسلم يتعمّق في عالم القلب تعمّقًا تتضاءل إزاءه المحيطات، عند ذلك ندرك حقيقة: "ما عرفناك حق معرفتك يـا معـروف"، وتصبح بالنسـبة لنا كَعَين اليقين، ونصِـلُ مكانةً "العجزُ فيها عن الإدراك إدراكٌ".

إنني أرى بقناعتي المتواضعة أن عالَمَنا قد تجاهلَ أيضًا هذا الأمر الإسلامي، ولقد استخدمتُ هذا التعبير؛ يعني "عالمنا"؛ حتى لا يُظنّ أنني أقصد الدولة التي نعيش فيها ليس إلا؛ لأنني أعتبر كل بلادنا قديمًا عالمًا لنا. أجل، إن عالمنا عالمٌ عظيمٌ يضمّ بين جناحيه عديدًا من الدول مثل مصر والسودان والمغرب وتونس والجزائر وكل بلاد المغرب العربي وبخارى وسمرقند وطشقند وجميع دول آسيا الوسطى وغيرها من البلاد الكثيرة التي رفرفت في آفاقها الروح المحمدية وتمتعت قرونًا بالعزة والشرف.

إن "إنساننا" هو تلك الجماعة المباركة التي تربّعت على القمة في عالمنا المنفتح على العلم والمعرفة فأبهرت غيرها من الأمم الأخرى.

بعد أن قصمتْ الحملات الصليبية ظهْرَ هذه البلاد وقعت فريسةً لاعتداء الأفكار الإمبريالية واحتلالها، ورُبما استطعنا بعد مدة أن نتغلَّب على أولئك المحتلّين ونخرجَهم من أرضنا إلا أنهم قاموا خلال الفترة التي جثموا فيها على صدورنا بتربية أشخاص ضعفاء الشخصية، اسْتَلَبوهم من بيننا، ثم أطلقوا سراح أنصار أفكارهم بيننا، وقام هؤلاء بدورهم بتربية أجيالٍ تكفلُ لهم عدم انقطاع الفساد من أسلافهم، فعلوا هذا اعتمادًا على خطّةٍ مسبقة و"أمورٍ دُبِّرت بِلَيل"، حتى أنتجت أعمالُهم أعمالًا أخرى تليها، فتتابعت التخريبات تلوَ بعضها متعاقبة.

فنشأ عالمٌ فكريٌّ خاصّ بهم، وبهذا دحروا الأنشطة الفردية المتنوّعة التي قام بها إنساننا، لدرجة أنه قد بدا اليوم من الصعب، بل من المستحيل أن نعود إلى عالمنا الروحي ونتوحد معه، ونُعيد ذاتيّتنا إلينا ما دمنا لم نستطع محوَ كلّ هذه الأفكار.

إن من أهمّ الضّرَبات التي مُنينا بها أنهم أبعدونا -بأساليبهم الخاصّة- عن ماضينا وتاريخنا وثقافتنا وجعلونا غرباء عن عالم الكتاب الخاص بنا؛ وبذلك حرموا جيلًا من مكتسبات القرون وخبراتها، ولم يكتفوا بهذا فحسب، بل أطلقوا سراح الأنشطة الهدامة في جميع المجالات، وملؤوا قلوب الشباب بالقضايا الشهوانية، وجعلوهم لا يفكرون بغيرها، وسرعان ما استولت على الأجيال فكرة "البوهيمية"، إلى أن أغرقتهم في دوّامتها، ورغم ذلك لم يبرز أحدٌ ويتجرّأ على الوقوف في وجه هذه المصيبة، أو أن معظمَ من يشغلون منصبًا يستطيعون من خلاله مواجهتها كانوا سعداء من حالهم، ولذا لم يحركوا ساكنًا.

وكما شاهد النبي ﷺ بعضَ المذنبين ليلة المعراج وما يتجرّعونه من عذاب، كنا نحن أيضًا نشاهد المجتمع في ذلك الوقت على مثل هذه الصورة، حيث غَرِقَت الأجيال في مستنقع الخمر والقمار والزنا والرشوة والاحتكار والربا وما إلى ذلك، وأخذت تسير بيننا بفراغٍ معنويٍّ كبير، وأفكار مظلمةٍ قاتمة، وكأنها قد اكتسبت شخصية أخرى ووجودًا آخر، كانوا يتسكعون هنا وهنالك مثل رقّاص الساعة بعد أن جُمّدت قلوبهم، وقد تمّت التجهيزات اللازمة كي يُصبِحوا ضحايا للفوضى والإرهاب، ثم دُعُوا بعد ذلك إلى أن يكونوا فضلاء وهم الذين دُفعوا إلى السفاهة دفعًا؛ فأشبهت حالتهم حالةَ ذلك الذي أُلقي به في البحر بعد أن رُبطت يده وذراعه، ثم طُلب منه فيما بعد أن يحذرَ البللَ.

أجل، كانوا يطلبون من الجيل في ذلك الوقت أن يكون فاضلًا، غير مثير للفوضى، محبًّا لوطنه، حاميًا لأمته، رافعًا من شأن لواء بلده، فهذه المطالب متطابقة من ناحية الشكل وإن كانت مختلفة من ناحية المحتوى،

وكما لا يمكنك أن تطلب ممن أُلقي به في البحر ألا يبتلّ كذلك لا يمنكك أن ترجو من هؤلاء أن يكونوا فضلاء.

وبعد ذلك نشأ مفهومٌ جديدٌ؛ لا يبدو منه أنه يخدم أيّ فكر، مفهومٌ يفضّل فتح جميع قنوات وحواجز الشهوة على مصراعيها لإنقاذ الشبيبة من الفوضى.

أجل، كانوا ينشدون من وراء هذه المفاهيم الغريبة أن ينقذوا الشباب من بعض الهواجس الضارة ويجعلونهم لا يفكرون في شيء آخر سوى إشباع شهواتهم، بيد أن الفوضى الحالية نشأت هي أيضًا وترعرَعت في مثل هذه البيئة، إلى أن صارت وحشًا كاسِرًا.

فوقعت الأجيال تحت وطأة جميع هذه العوامل الداخلية والخارجية وابتعدت يومًا بعد يوم عن القراءة والتفكير، وكأنها أصيبت بالهذيان، وفي اعتقادي أن هذا الابتعاد وذلك الهذيان ما زال مستمرًّا حتى يومنا هذا، ومن ناحية أخرى كانت محاولة إقحام الكلمات التي لا أصل لها بلغتنا بمثابة ضربة أخرى على فَهْم ما يُقرأ، فأصبحنا لا نفقه شيئًا من لغتهم، والعكس صحيح، وأصبح رجال الجيل الواحد لا يتفاهمون مع بعضهم البعض إلا بصعوبة بالغة، فإن لم نستأصل شأفةَ هذه المشكلة لدَمّرت حياتَنا الفكرية بما لا يقلّ عن غيرها من المشاكل.

أجل، نحن اليوم أبعد ما نكون عن القراءة، والنتائج المخزية لهذه الحالة ظاهرة عيانًا بيانًا، لقد أصبحنا سطحيين في التفكير، وحُرِمنا من تقديم إبداعات جديدة، إننا لَسْنَا لا نشتهي القراءة فقط، بل إن معظمنا في الوقت ذاته ينفرُ منها، حتى إن بعضًا من قرّائنا يقرأ قراءةً سطحية، جعلَتْنا عاجزين عن إنتاج أيّ جديد في الفكر.

وإنّـكَ لترى عقـولَ وأرواح الأمس المظلمة التي تعلمـت منا القراءة وغيرَهـا مـن الفضائـل قد أضحـت اليوم تقـرأ وتفهـم وتفكّـر، تجدها في البيت والسـيارة وموقف الحافلات تفتح الكتاب الذي تحمله في حقيبتها وتستغلّ وقتها أفضل استغلال على حسب معاييرها.

وإذا مـا نظرنـا إلى المسـألة في إطـار دائرتنا الضيقة لألفَينا السـابقين الذيـن سـنّوا الطريق أمامنا يقول أحدهم: إنـه قد قرأ بعض المؤلفات التي حرّرها ثمانين أو مائة مرّة، وهذه وصِيّة فعلية لنا بضرورة القراءة.

وبعدما كان يقرأ بنفسـه هذا القدر من مؤلفاته التي يمليها على طلابه ارتجـالًا مـن نتاج قريحته يتابـع طلابه قائلًا لهم: اقرؤوا، وبذلك يكون قد وضـع يـده على أهم وأخطر داء في عصرنا، وأرشـدنا إلى سـبيل العلاج منه.

فعلـى مـن يتبعون هذا الطريـق أن يقرؤوا، ويتـزوّدوا بثقافة عصرهم، ويمحّصوا المعلومات التي اكتسبوها من قبل، ويحملوا هذه الخبرة الثقافية إلى المحتاجين؛ حتى يكون لكلامهم صدًى وقبولًا لدى المخاطبين، ولا يدعوا الفرصة سانحة أمام مَن يفسدون في المجتمـع.

إن تَـرْكَ القـراءة يعني الخيانة؛ وكيف لنـا أن نبعث الطمأنينة في غيرنا وننقذ الأجيال من التيارات الهدّامة ونحن نتخبّط في الفضاء، رغم أن هذه مهمتنا الأولى وغاية حياتنا المنشودة.

إذًا نحن في أمسّ الحاجة قبل الجميـع إلى الاسـتجابة للأمر القرآني الأول "اقرأ".

مقوّمات بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى

سؤال: يقول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ﴾ (سورة التَّوْبَةِ: ٩/٤١) **ولكننا لا نستطيع بذلَ ما بوسعنا، فما السبب في هذا؟**

الجواب: هناك آياتٌ عديدة في القرآن الكريم تحضّ على بذل الأموال والأنفس في سبيل الله، وهناك أوامر عديدة صريحة أو غير صريحة في القرآن تهدف إلى تنظيم حياتنا الخاصة وحياتنا العائلية ضمن إطار الإسلام، وإقامة الحياة الدينية في المجتمع الإسلامي، وصبغ الأفراد بشعور الإحسان والأخلاق الإسلامية في البلد الذي نعيش فيه، والحقيقة أنه ما لم تتمّ سيادة مثل هذه الروح وهذا الشعور فلا نبالغ إن قلنا إنه لا يمكن لإنسان أن يكون مسلمًا على الوجه الأكمل، بل ولا أن يظلّ على إسلامه ويعايشه.

إن الحياة الإسلامية تعرّضت -ولا سيما في أيامنا الراهنة- لضربات قوية ضَعْضَعَتْ أُسُسَ المؤسّسات فيها، هذا مع العلم بأن علماء الاجتماع المسلمين متّفقون على أنه لا يمكن أن يكون ثمّة إسلامٌ حقيقيّ إلّا في مجتمعٍ إسلاميٍّ تنطلق فيه الأسُس الإسلاميّة بِحُرِّيَّةٍ في إطارٍ ديموقراطي، فإن لم تكن السوق منتظمةً وفق أخلاق التجارة وشعور الإحسان ومفهوم الحقّ والعدل، وإذا لم تكن المؤسّسات التربوية -التي تُحاول رفع الإنسان إلى مستوى الإنسانية- تأخذ بيدك على نفس منوالِ الروح

والشعور، ولا تسرع إلى نجدتك ولا تنير الطريق أمامك ولا ترشدك فإنك لا بد أن تتعثّر بعد بضع خطوات أو تضلّ أو تنحرفَ أو تسقطَ وتَضْطَرّ إلى أن تُقدّم تنازلاتٍ كثيرةٍ باسم الأخلاق والفضيلة، والنتيجة هي أنك لن تُوفّق في العيش كمسلمٍ بشكل تام؛ لأن المجتمع سيقوم أحيانًا بقَطع الطريق أمامك، وكذلك الشارع أحيانًا أخرى، والأسوأ من كلّ هذا أن التربيةَ الخاطئة ستقف أمامك كوحشٍ كاسِرٍ وتقطع عليك الطريق، لذا فإن السبيل الوحيد للعيش كمسلمٍ لا يتمّ إلا بتطبيق الوازع الدينيّ بشكلٍ جِدّيّ.

إن الوازع الدينيّ عبارةٌ عن تنبيه وإيقاظ القلوب وتبليغ الدين للناس، وإعلامهم أن الإنسانَ مسافرٌ وضيفٌ في هذه الدنيا، وأن هذه الدنيا ليست إلّا عالَمًا واحدًا من العوالم الكثيرة التي يمرّ بها الإنسان، وأنه كما جاء إلى هذه الدنيا فسيرحل عنها إلى دار القرار. أجل، يجب تذكير الإنسان بهذا وتنمية الوازع الروحيّ والدينيّ في قلبه كي يستطيع القيام بوظيفة الجهاد بالنفس والمال على الوجه الأمثل.

إنّ القلوبَ الظامئة لا تحتاج كثيرَ كلامٍ حيالَ هذا الموضوع، ونستطيع أن نقول إنه يوجد اليوم مِن المسلمين المضحّين الذين يخدمون الإسلام مَن يستحقّ -وهذا ظنّنا فيهم- أن يأخذَ مكانه خلف الصحابة الكرام، نذكر فضل الله هذا ونعمته ونَنْحَنِي بخشوعٍ وخضوعٍ في حضرته وكبريائه، ذلك لأنه في عَهْدِ الجفاف هذا؛ الذي لا تنبت فيه الأرض نبتةً ولا تُمطر السماء فيه قطرةً واحدةً؛ نرى أن الله تعالى قد أحسن مرّةً أخرى بالإسلام والقرآن على هذه القلوب المؤمنة التي تجيش بمشاعر السخاء، ويحدوها الشوق إلى خدمة ديننا وأمتنا، ثم كسرَ القيود التي تُعرقل نهضةَ أمّتنا، وقلبَ هذه

الصحراء القاحلة إلى بساتين مزهرة وإلى جنات وارفة الظلال مورقة، فله الحمدُ حمدًا طيّبًا مباركًا يليق بجلاله وعظمته.

وأنا أُحِسُّ أن هذا السؤال الصادر من هذه القلوب المتحمّسة الصادقة التي تعرضت لشدٍّ معنويٍّ كبيرٍ يستتر تحته السؤال الآتي: كيف نستطيع إثارة الرأي العام وعاطفته وإحساسَه لكي يجاهد بماله ونفسه في سبيل خدمة ديننا وأمتنا؟ كيف نستطيع هذا لكي نقطعَ بسرعةٍ أكبر نَفَقَ الزمنِ المكلَّفونَ باجتيازِهِ، ولكي نقطع البراري والصحارى والجبال الشامخة والوديان العميقة المملوءة قيحًا ودمًا قبل أن تُحِسَّ بنا الأعين الخائنة في الداخل وفي الخارج التي وصفها القرآنُ الكريم بـ﴿خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ (سورة غَافِرٍ: ١٩/٤٠) والتي ترصد وتراقب كلّ ما يهمّ المسلمين، وتحاول عرقلة كلّ شيء إيجابي ومفيد لهم؟ وإلّا فإن المسلمين الذين يسيرون بين عوائق وموانع عديدة إذا ما واجهتهم الأرواح الفاسدة لما استطاعوا قطع طريقٍ يستغرق سنةً واحدةً إلّا في عشر سنوات.

لذا كان لِزامًا على المسلمين تناولُ هذه المسألة وإنجازُها بسرعة أكبر، مثلًا لنفرض أن المسلمين يستطيعون بالإمكانيات المتاحةِ بين أيديهم فتحَ مدرسة واحدة في سنةٍ واحدةٍ لتربية جيلنا وتوجيهه إلى الكمال؛ فإن عليهم أن يضغطوا على أنفسهم قليلًا فيفتحوا مدرستين في سنةٍ واحدة، وهذه ضرورةٌ من ضرورات عملية إحياء الأجيال والعهود القادمة، فإن لم نقم بما يجب القيام به حالًا نحو إنساننا الحاليّ بشكل صحيح فلن نستطيع غدًا القيام بأي شيء حتى لو بقينا محتفظين بقوّتنا كما هي الآن، لأن الموانع أمامنا تتفاقم مع مرور الزمن وستكون في الغد أكبر وأشد وأقوى، ومن الصعبِ تجاوزها والتغلُّبُ عليها آنذاك بإمكانيّاتنا الحالية.

ومن هنا فإنّ الصحابةَ الكرامَ قاموا في ظرفِ ثلاثين سـنة بفَتْحِ بلدان واسـعة ووضعِها تحت قيادة الرسـول ﷺ والخلافة الراشـدة، هذه البلدان كانت تُعادِلُ تقريبًا من ناحيةِ الكمّ والكيف ما تمّ فتحُه من البلدان في عهد كلٍّ من الأمويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين، وإذا أردتم التأكُّد من هذا فألقوا نظرةً إلى خريطة العالم وسترَون... فمثلُ هذه المساحة الواسعة الشاسـعة تم فتحها في عهد الخلفاء الراشـدين الأربعة، وهو أمر فريدٌ لا يمكن إيضاحه وتفسيره، والأغربُ من ذلك أنّ الكمّ الأكبرَ من هذا الفتحِ تحقّقَ في عهد الخليفةِ عثمان بن عفان ﷺ... هذا جانب من المسألة.

أمـا الجانـب الآخر فهو أن هـذه الفتوحات لم تعتمد على الاسـتبداد والقهر، فلم يَحْدُثْ وأن أُكْرِهَت القلوبُ أو مُورِسَ الضغطُ على الضمائر، بـل فُتِحَت القلوب بتحبيب الإسـلام إليها، وجَعْلِ العقولِ متشـوّقةً لتلقّي أوامـر الإسـلام بـكلّ رحابة صدر، لذا فإن الإسـلام انتشـر انتشـارًا كبيرًا وسـريعًا فـي جميع الأماكـن التي وصل إليهـا الصحابة الكـرام، وأعقب عهـدَ الانتشـار هـذا عهدُ العلـم والعرفـان والثقافة، وما تم إنجـازه آنذاك لا يزال مثارَ دهشةِ وذُهُولِ العالم، وقد يقول قائل: وما الفائدة من إعجاب العالـم بذلـك العهـد؟ فنقول: إن هذا فضلٌ وحقٌّ كبير، فالحقّ ما شـهدت به الأعداء.

أجـل، إن الآثار الثقافيـة والحضاريّة التي تمّ إيصالهـا إلى نقطةٍ وأُفُقٍ أذهل العالم، والتمثيل الجيد للإسلام كان من أهم أسباب انجذاب الناس إلـى الإسـلام، فإن كان فـي هذه البلـدان تواصلٌ مـع الإسـلام الآن؛ فإن الفضـل يعـود إلى تلك البـذور التي ألقتها تلك الأيـدي المباركة النورانية المخلصة، وأنا أعتقد أن هذه المسألة مهمّة جدًّا.

فالإنسان لا يستطيعُ منعَ نفسِهِ من الإعجاب الشديد بمدى الإخلاص الذي كان الصحابة ﷺ يتمتّعون به، فقد أحسنوا ترتيبَ الأزمنة التي يجب فيها التضحية بأموالهم وأنفسهم وأرواحهم، فمثلًا عندما قيل لهم يومًا "يجب عليكم ترك مكة" تركوها دون أن يلتفتوا إلى بكاء أطفالهم وثغاء ضأنهم ومأمأة خرافهم وصياح أنعامهم، لقد كانوا يتمتّعون بروحٍ إبراهيمية وفهمٍ خليلي، لذا تركوا حتى أولادهم وزوجاتهم، فلو قيل لأبي بكر ﷺ: لماذا هاجرت دون أن تلتفت وراءك؟ لقال لهم: إنني بشرٌ من لحمٍ ودمٍ، ولو فعلتُ هذا فلربّما تُؤَثِّرُ فيّ توسّلات عائشة وهي تناديني وتقول: أبتاه!... أبتاه... ولو حدث هذا لقيل لي آنذاك: يا أبا بكر لا يجتمع حبّان في قلبٍ واحد، عند ذلك كنت سأقول: إذًا فخذْ أحدهما!

بمثل هذه الروح لم يتردّدوا قطّ في تنظيم أيامهم وأوقاتهم وزمانهم، وعندما جاء يوم التضحية ضحّوا بكلّ شيء، وقاموا بعملِ ما يجب عليهم على الوجه الصحيح، وقد أنعم الله عليهم فيما بعد من الناحية المادية والمعنوية بأضعاف ما ضحّوا به آنذاك، كان المهاجرون قد تركوا أموالهم وأملاكهم في مكة، ولكن ما إن أقاموا في المدينة المنوّرةِ بضعَ سنوات حتى أعطاهم الله أضعافَ ما تركوا، فمثلًا بعد أن هاجر عثمان ﷺ وترك كلَّ أملاكهِ في مكة اغتنى في المدينة إلى درجة أنه جهز ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وتبرّعَ بها لاستكمال تجهيزات "جيش العسرة" الذي توجّه إلى "تبوك"[٢٢]، وقد يصعب على العقول فَهْمُ كيفَ استطاعَ عثمان ﷺ في تلك المدّة القصيرة تكوين مثل هذه الثروة الضخمة، ولكنه كان مظهرًا لقوله تعالى ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ (سورة الأَنْعَامِ: ٦/١٦٠)، والحقيقة أن هذا العطاء هو الحدّ الأدنى، فقد يُعطي الله تعالى مائةَ أو ألفَ

(٢٢) انظر: سنن الترمذي، المناقب، ١٨.

ضعف. أجل، لقد أنفقوا في الوقت المناسب والمكان المناسب كلّ ما يتوجّبُ عليهم، فحصلوا من الله تعالى على أضعاف ما أَعْطَوا وأنفقوا، ويوجد اليوم من المؤمنين من يقول "أنفقوا في سبيل الله، وأنا أضمن أن الله تعالى سيعوّض عليكم بأضعاف ما أنفقتموه، فإن لم يتحقّق هذا فسأقوم أنا بالبذل بدلًا عنكم".

ولو كان لدى أبي بكر أو عمر رضي الله عنهما أيُّ ميلٍ إلى الدنيا لكان في مقدورهما أن يُصبحا فيما بعد من أغنى أغنياء العالم، ولكن لم يشأْ أيٌّ منهما الانحرافَ عن طريق رسول الله ﷺ أو الافتراق عنه، فما كانوا يحصلون عليه بِيَدٍ، كانوا ينفقونه باليد الأخرى ويتصدقون به، وهكذا كان ينفد ما يأتي إليهم، وقد كان هناك من الصحابة الأغنياء مَنْ لا يستطيعُ إحصاء ثروته كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وكأنس بن مالك رضي الله عنه الذي شبّ في بيت الرسول ﷺ ونال بركةَ دعائه، ففي رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أم سليم رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، أَنَسٌ خَادِمُكَ، ادْعُ اللهَ لَهُ، قَالَ: "**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**"(٢٣).

كان أنس رضي الله عنه في العاشرة من عمره عندما دخل في شرفِ خدمة النبي ﷺ، وعندما أغمض الرسول ﷺ عينيه عن هذه الدنيا الفانية كان في العشرين من عمره، وأصبح من الأغنياء في عهد الخلفاء، حتى إنه قال مرةً: لقد رأيت أبناء أحفادي، وربما مَن دفنتهم بيدي من أحفادي يتجاوز المائة، أما بالنسبة لثروتي فلا أعرف قدرها، ولا أعلم عدد أغنامي من كثرتها، معنى ذلك أنه كان مظهرًا لفضل الله تعالى عليه.

لقد أعطوا وضحّوا بأرواحهم وأموالهم عندما حان حين العطاء والتضحية، ثم عندما آن الأوان حصلوا على الثمرات الدنيوية والأخروية،

(٢٣) صحيح البخاري، الدعوات، ٤٦؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ١٤١.

فكمـا تُنقَل البُـذور الموجودة في المخزن وتُبـذَر جميعها في الأرض في موسم الربيـع، وعندما يحين الأوان تقوم الأرض بإرجاعها سنابل عديدة، كذلك يجب على الإنسان أن يتحوّل بكلّ كيانه إلى بذرة ويلقي بنفسه إلى التراب، عند ذلك سنرى أن كل بذرة ستنشقّ عن سبع أو عشر سنابل، في كل سـنبلةٍ مائـةُ حبّـة كما جاء في القرآن الكريم، عندئذ سـيذهل الجميع من عظيم فضل الله، حتى الزرّاع سيصيبهم الانبهار والدهشة من هذا، بينما يصـاب البعض بالغيظ من امتـلاء المخازن بكل هذه البركات، وهنا يظهر سرُّ الآية الكريمة ﴿**لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ (سورة الفَتْحِ: ٤٨/٢٩).

إذًا عليكم أن تتخيّلوا أنفسـكم في موسـم الربيـع الصالحِ للبذار، ثمّ تجـودوا بـكل أنواع البذل والعطـاء، وإياكم أن تتوقّفـوا أو تقولوا: "يكفي هـذا الإنفاق الـذي أنفقته"، إلّا إذا وقف أمامكم مـن تثقون به وقال لكم: "كلا، يجـب ألا تبالغـوا مثـل هذه المبالغـة في الإنفـاق"؛ أي لا تنفق كل هـذا الإنفـاق اليوم، لأنه سـيحين فـي المسـتقبل أوانُ الإنفـاق أيضًا، فلو لـم نحسـب حسـاب الإنفاق في المسـتقبل لقلنا لكم "أنفقوا اليوم كل ما تسـتطيعون إنفاقه"، وإذا أتينا إلى سـؤالٍ مفترَضٍ يقول: "حسنًا! وماذا عن المستقبل؟" قلنا: إن الغدَ في ضمانةِ الله تعالى... فالمناسب لنا هو التحلّي بالروح الخليليّة ليس إلّا؛ أي أن نفعل كما فعل إبراهيم الخليل عليه السلام عندما تـرك زوجتـه وابنه في وادٍ غير ذي زرعٍ ثمّ قَفَلَ راجعًا دون أن ينظر خلفَه، فهـذا هـو مـا يليق بنا، وما سـنّه لنا سـلفُنا الصالحُ وعلى رأسـهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلقد قال النبيّ ﷺ في حقّه: "**لَو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي**"[٢٤].

(٢٤) **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ١.

هكـذا أحـرز أبو بكر ﷺ هذه المرتبة الرفيعـة، فكما كان إبراهيم ﷺ خليلَ الرحمن، كذلك كان أبو بكر ﷺ خليلَ رسـول الرحمن ﷺ، فعندما سـأل الرسـول ﷺ أبا بكر ﷺ قائـلًا: "**مَا أَبْقَيتَ لِأَهْلِكَ؟**" قـالَ: أَبْقيتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُـولَهُ"(٢٥)، هذا هو الجوابُ اللائقُ بمن حازَ مرتبةَ الصديقية، وهذا الجواب من الصديق الأكبر تعبيرٌ عن حُسْنِ تقييمِ زمان الإنفاق.

والذي نفهمه من الآية الكريمة ﴿**وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: ٩/٤١) هو وجوب تقييم الزمان بهذا التقييم الجيد، ويمكننا أن نقـول باطمئنـانٍ أن ثمة كثيرين اليوم قد أحسـنوا اسـتثمار هذا المعنى السامي.

ولو قام أحدهم بتسجيل صور الكرم والبطولة للمؤمنين الحاليين على غرار ما قام به "الفردوسـي" في كتابه "الشـاهنامة" -ويعني بالعربيّة "كتاب الملـوك" أو "ملحمـة الملـوك"- المؤلَّف من سـتين ألف بيت من الشـعر لاحتاج إلى تسطير ستين مليون بيت لكي يوفّي هؤلاء المؤمنين حقّهم في الشهامة والكرم، ندعو الله تعالى أن يُبارك في كرمِ وسخاء هؤلاء المؤمنين ويزيدهـم أضعافًـا مضاعفـة، فنحن الآن نعيش ربيـعَ هـذا الأمر، والزهورُ متفتّحـةٌ حوالينـا، أي إن هـذا هو الموسـم الذي تنتظره القلـوب المؤمنة، فعلـى مؤمنـي هذا العصر في كل مـكان أن يؤدّوا بحـقٍّ الواجبات الملقاة على عواتقهم في سبيل خدمة وطنهم وأمّتهم، لذا فإنهم كلّما حاموا حول الفكرة -التي بَذَرَتْ بذورَها قبلَ سـتة أو سـبعة عقود تلكَ الروحُ العظيمةُ والقامـةُ الرفيعةُ(٢٦)- كلّمـا ازداد فرحُها في مكانها، وربما قالت: "لقد جاء

(٢٥) **سنن أبي داود**، الزكاة، ٤١؛ **سنن الترمذي**، المناقب، ٤٤.
(٢٦) يقصد بهذه الروح العظيمة الأستاذ سعيد النُّورْسي.

هؤلاء الشباب إليّ بهدايا الربيع، وأنا أقابلهم الآن بالكلام الذي سبق وأن وعدتهم به قبل سنوات، فأقول: هنيئًا لكم"[٢٧].

هـذا هـو الموقف الحالي كما أظنّ، ولا قِبَلَ لي بتصوير سـرعة وتيرة مثل هذه الأنشطة الخيرية التي تحمل مستقبلًا مشرقًا لأمتنا، ومدى القبول والإعجاب الذي سـتناله مثل هذه التضحية والكرم والشهامة من قِبَلِ ربِّ العالمين ومن قِبَلِ رسـول الله ﷺ ومن قِبَلِ العلماء العظام الذين أناروا لنا الطريق وربّوا أناسًا نورانيين في أحلك عهود الظلام، وقدر الفرح والسرور الذي سيسـري في عالـم الروحانيين، إنني عاجز عن هـذا التصوير وأدعه لكم ولقوة تصوركم.

الجانب الآخر من هذه المسـألة هو كيف نسـتطيع أن نجاهد بأموالنا وأنفسـنا، وهـذا الجانب مرتبطٌ قبلَ كلِّ شـيءٍ بالإيمـان والثقة، ذلك لأن المزارعيـن إن اطمأنّوا ووثقوا بـأن البذور التي يبذرونها في باطن الأرض لن تموت وتتفسّـخ هناك؛ بل سـتنبُت وستُزهر؛ فإنهم لا يتردّدون أبدًا في دسّ كلّ مـا يملكـون من البذار في التربة، ثم يبدؤون الانتظار، ولو اطمأنّ أصحـاب البسـاتين بأن الفسـائل التي يزرعونها سـوف تنمو وتبسُـقُ فلن يتردّدوا أبدًا في زراعة جميـع الفسـائل التي يغرسـونها دون إهمال أو ترك فسـيلة واحدة، والذين يملكون أجهزة تفريخ البيض سـيقومون باستعمال هذا البيض في تلك الأجهزة أو يضعونه تحت الدجاج كيلا يفسـد، ولكن إن لـم تكن ثقةُ هؤلاء الأشخاص بهذا المستوى، وشكّوا بأن بعضَ البذور ستفسُـد وبعضَ البيـض لن يُفقِس، أو ظنّوا بأن ذلك الموسـم غيرُ صالحٍ لبَـذْرِ البذور، فَمِـنَ الطبيعي أنهم لن يبذروا كلّ بذورهم، بل يُبقون مقدارًا

(٢٧) بديع الزمان سعيد النُّورسي: **سيرة ذاتية**، ص ١١٤.

منها في أيديهم، وسيقومون بكنز أموالهم ليبقى قسمٌ منها لأحفادهم، لذا لن يتصرّفوا بسخاء وكرمٍ، ولن يشعروا بمثل هذا الشعور في وجدانهم.

من هذا المُنْطَلَقِ نستطيع القول بأن التضحية في سبيل الله مرتبطةٌ بمقدار ثقتنا بالله تعالى وإيماننا به، فلو آمنّا بأنه موجودٌ مثل إيماننا بوجودنا، ولو آمنا بأن أيّ شيءٍ نعمله في سبيله سيرجع إلينا أضعافًا مضاعفة، وأنه سينمو ويزهر ويثمر في العالم الآخر مصداقًا لمقولة "الدنيا مزرعة الآخرة"... لو آمنا بأن الدنيا مزرعة الآخرة وبستانها وحديقتها لما قصّرنا ألبتة في التضحية والبذل.

أجل، فما نقدّمه من عملٍ وتضحيةٍ وكرمٍ وبذلٍ مرتبطٌ بمدى إيماننا وبقوة هذا الإيمان، وما بذله المسلمون حتى الآن من سخاءٍ وكرم يزيد من أَمَلِنَا في أنهم يستطيعون إنجاز أعمال أكبر، وكما تعلمون فإن هناك بشارات من الصادق الأمين ﷺ حول المستقبل، فلنسْعَ جميعًا لأن نكون مظهرًا لهذه البشارات حتى يتحدث أهل السماء والملائكة ويقولوا: "يا رسول الله! أهؤلاء هم الذين عنيتَهم؟". أجل، فكلّما جاش وبذل وسعى خدام الإسلام بما يملكون وكلما زادت شهامتهم وتضحياتهم في هذا السبيل اقتربوا من الهدف المنشود بسرعة أكبر وبصورة أفضل.

الجنديّة الخالصة لله تعالى

سؤال: كيف يمكن أن نكون جندًا لله تعالى بحقٍّ؟ أيمكنكم شرح هذا ضمن مفهوم الجندية؟

الجـواب: الجندية هـي أبرز خاصّيّةٍ للمؤمن، فنحـن جند الله تعالى، نرجو من الله القبول، فيا ليتنا نكون جنودًا له بحق؛ فنقف على بابه، ونضـع جباهنـا علـى أعتابه، ولا نرفعها إلى الأبد، وننتظر وننتظر، ثمّ نطرق أحيانًا بابـه ونحن نقلّب بصرنا الحزين -ولكن المملوء أملًا أيضًا- إلى اللانهاية ننتظـر منه الجواب، فإن لم يأتِ هـذا الجواب قلنا "يا صبور" وبقينا ننتظر دون مَلَـلٍ أو كَلَـلٍ، وفي ثنايا هذا الانتظار الطويـل إن بدا أن البابَ ينفرج قليلًا ثم ينسدّ في وجوهنا مرّةً أخرى قلنا: "لم نُستدعَ هذه المرة أيضًا، إذًا فلَـمْ نُظهر بعدُ لياقَتَنَا"، فنداوم علـى الانتظار المؤلم، ولكن بعاطفةٍ ملؤُها الإخـلاص، وكأنّ شـيئًا لـم يحدث، ولكـن ونتيجة لهـذا الإخلاص نأمل أن يأتـي يـوم وتأتـي النتيجة على غير توقّـع منّا وينفتح لنـا الباب قائلين لنـا: "لقـد أظهرتم لياقَتَكم، فتفضلوا"، يقـول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (سورة البَقَرَةِ: ٢/٤٠)، أي تمسّكوا بعهدكم معي، واثبتوا، ولا تبدّلوا أماكنكم، ولا تتضجّروا بما يعترضكم من حوادث مؤقّتة،

وسأوفي بعهدي معكم؛ يعني أنني لن أنقضَ العهد الموجود بيننا أبدًا، فإن كان هناك من ينقض هذا العهد فهو أنتم، إذًا فاثبتوا في هذا الموضوع ولا تنقضوا العهد والميثاق لكي ينفتح لكم باب الله تعالى يومًا ما.

ولكن لنحاسب أنفسنا؛ هل قمنا بالمحافظة على هذا العهد بهذا المقياس من الإخلاص والوفاء؟ وهل استطعنا المداومة على الانتظار على بابه صابرين على أسناننا دون مللٍ ولا كلل ولا ضجر؟ أم اعترانا اليأس؛ لأن الباب أُغلق مرةً في وجوهنا؟ وهل تخلَّينا عن الولاء لأن الحوادث في الكون لم تجرِ على هوانا ووَفْق نظامنا العَفِنِ؟ بيد أن الشاعر يقول:

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ثم إن مقودَ هذه السفن في يد الآخر، والبحر هنا بحرٌ آخر، والذي يحكم كلّ سفن هذا البحر حاكمٌ آخر، فلا شيء يجري هنا حسب مشيئتنا أو وفق أهوائنا، بل حسب مشيئته وإرادته هو، "مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ"، وهذا من الإرشادات النورانية لرسول الله ﷺ لنا حول التسليم المطلق للحقّ تبارك وتعالى، وهو أحد الأوراد التي حثّنا النبيّ على تكرارها صباح مساء، فلقد علّم النبيُّ ﷺ إحدى بناته فقال: "**قُولِي حِينَ تُصْبِحِينَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَإِنَّهُ مَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُصْبِحُ حُفِظَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُمْسِي حُفِظَ حَتَّى يُصْبِحَ**"(٢٨).

(٢٨) سنن أبي داود، الأدب، ١٠١.

إن كنا نريدُ أن نكون جندًا لله تعالى فإننا مضطرّون إلى "الفناء في الله" حسب التعبير الصوفي، وأن نعلم ونستيقن بأن كلّ الخير وكلّ المحاسن من الله تعالى، وكلّ ركودٍ وتوقُّفٍ وفشلٍ وزلّة في الخدمة الإسلامية إنما هي من عند أنفسنا، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٧٩/٤)، ويقول في موضع آخر: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (سورة الشُّورَى: ٣٠/٤٢)، فالمصائب التي تصيبنا هي مما كسبت أيدينا ونتيجة أخطائنا وذنوبنا واسوداد قلوبنا وغلبة أنانيّتنا علينا؛ ولأن الله رحيم فإنه لا يؤاخذنا بكلّ ذنبٍ من ذنوبنا، بل ويعفو عن كثير، لذا علينا أن نكون مفعمين بمشاعر الحمد والمنة على عفوه وغفرانه، ندعو الله أن يغفر لنا ويتجاوز عن سيّئاتنا.

علينا أن نتّخِذَ من أنفُسِنا جندًا حقيقيّين لله تعالى، فإن فعلنا ذلك شعرْنا بالراحة والاطمئنان، وهناك من يعيش هذا بقلبه... أجل، هناك من المؤمنين من هو على شاكلة الشاعر الصوفي "يونس أمره" الذي هجر كلّ شيء؛ المالَ والبنين والعيالَ قائلًا لربه: "أُريدُكَ أنت، أنتَ فقط"، لقد استسلَموا لله بالكلّية حتى إنهم قالوا: "لا أطمعُ في جنّتك ولا حورِك ولا غِلمانك، بل أُريدك أنت وحدَك، وحدَكَ دون سِواك"... وأحسبُ أن جندَ الله سيحسّون زيادة على ما ذكرناه بحقيقة هذه المسألة التي طوّروها في أرواحهم وضمائرهم، فإذا ما رأَوها في مرآة أرواحهم أخذتهم الحيرةُ والإعجاب من روعة هذه الحقيقة العظيمة، واستمَرّوا في جنديتهم بكلّ نشوة وشوق.

الخشيةُ واستنهاض الهمّة

سؤال: لا أصوم ولا أقوم، ولا تدمع عيناي ولا يجيش قلبي، بل يسيطر حبُّ الظهور والرياء على خدمتي للدعوة... ومع ذلك فلا أستطيع ترك هذا الباب... فماذا أفعل؟

الجواب: هذه هي صرخةُ قلب متألِّمٍ يرى نفسه مُحَاطًا بالفراغ من جميع الجوانب، هذا ليس سؤالًا؛ بل هو واقعٌ نعيشه جميعًا، كان أحد العظماء كثيرًا ما يكرر الأبيات التالية:

ليس لي عِلْم ولا عمل نافع،
ولا قدرةَ لي على الطاعة والبر، ولا دافع
غريقٌ في العصيان... كثيرُ الآثام والشرور...
فماذا تكون -يا تُرى- حالي يوم الحشر والنشور؟!

إنّ البكاء والأنين عمليةُ تفريغٍ للمخلصين والصادقين الذين تلتهب أفئدتهم وتكتوي صدورهم على الدوام، فكأن أفئدتهم تحتوي على جمر من نار جهنم تكوي صدورهم فلا تجد مشاعرهم هذه طريقًا للخروج إلا بالدموع، لذا نرى أن رسول الله ﷺ يقيم توازنًا بين جهنم وبين الدموع.

فقد ورد في الحديث: "**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَخْرُجُ مِنْ عَينَيه دُمُوعٌ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ، مِنْ خَشْيَةِ الله، ثُمَّ تُصِيبُ شَيئًا مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**"(٢٩).

أجل، فما يستطيع إطفاءَ نار جهنم شيءٌ سوى الدموع، وفي حديث آخر يعبّر عن هذا التوازن بقوله: "**عَينَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَينٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَينٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله**"(٣٠)، وفي هذا الحديث -كما في أحاديث أخرى- ينظر الرسول ﷺ بالنظرة نفسها إلى مَن يجاهد في سبيل الله، وإلى مَن يجاهد نفسَهُ فيذرِف الدموعَ.

ويذكر القرآن الكريم أيضًا على سبيل العِظَةِ والعبرة حالَ الذين يخرّون سجَّدًا وبكيًّا، كما يدعو في آيات أخرى إلى تقليلِ الضحكِ وتكثير البكاءِ والشعور بالخذلان على ما وقع من الآثام، فالدموع أعدلُ شاهدٍ على رقّة الطبع وجمالِ الروح، وكلُّ قطرةٍ منها تعادلُ مياهَ الكوثر في الجنة، وجفافُ الدموع حالةٌ من البؤس التي يُرثى لها؛ ولذا كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله تعالى من العين التي لا تدمع كاستعاذتِه من الشيطان الرجيم، فيا ليت باستطاعة كلّ مؤمن مراقبة نفسه والاعتراف بهذه الحقيقة المُرّة قائلًا: ليس لي علم ولا عمل.. ولا قدرةَ لي على الطاعة والبرّ.. ولا دمعة في عيني.. ولا طاقة في قلبي.. ولا نور في إرادتي...

ألا هل يستطيعُ كلُّ مؤمنٍ أن يُقنِعَ نفسَه بأنه لا شيء، وأنه إن كان مظهرًا لبعض ألطاف الله تعالى فليس بسبب لياقته وأهليّته، بل على العكس تمامًا؛ لحاجته وافتقارِه، وإن فقرَه وإفلاسَه هما السبب في تنزّل رحمة الله

(٢٩) سنن ابن ماجه، الزهد، ١٩.
(٣٠) سنن الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢.

تعالى واستجلابِ ألطافه، إن أول الطريق أمام الإنسان للتخلّص من عيوبه وتقصيراته هو معرفة هذه العيوب أولًا، ويجب أن يعقب هذه المعرفةَ إحساسٌ بالندم والألم لكي يستطيع الإنسان الخلاص منها.

إنّ من أهمّ النِّعَمِ التي أنعم الله تعالى بها على المؤمنين حبّهم كلّ ما يُناطُ بالإيمان وكرهُهم ونفورهم من كلّ ما يُناطُ بالكفر والفسوق والعصيان، ويستطيع الإنسان بهذا الحبّ وبذلك الكُرْهِ التسلّق إلى قِمَمِ الإنسانية والإيمان، ويتخلّص من كلّ العوائق والمثبّطات وإلى هذا الأمر تُشِيرُ الآية الكريمة: ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۞ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (سورة الْحُجُرَاتِ: ٤٩/٧-٨)، إذًا فإنّ الله حبّب الإيمان وزيّنه في قلوب المؤمنين، وعندما ينظر المؤمنون من عدسة هذا الإيمان فكأنهم يرون الجنة وحورها، والأكثر من ذلك أنهم يَرَون جمالَ الحقّ سبحانه وتعالى.

إن كان المقصود من هذه الآية الصحابة الكرام، فقد كان هذا السلوك في الحقيقة هو طبعهم العام الذي لا يتغيّر أبدًا؛ إذ كانوا يحبّون إلى درجة الوجد والعشق كلّ المسائل المتعلقة بالإيمان وكلّ الأحكام المتعلقة بالعبادات، وينفرون ويكرهون الكفر وكلّ ما يؤدّي إليه، وبفضل إيمانهم هذا كانوا وهم في الدنيا يشعرون وكأنهم يعيشون في الجنة وفي جوّها؛ ولذا فإن العودة إلى الكفر مرة أخرى يعني بالنسبة لهم ترجيح الاحتراق بلهيب جهنم على الترفّه بنعيم الجنة، لذا فقد وصلوا إلى مرتبة الرشد، وكان هذا فضلًا كبيرًا من الله ونعمة.

لقد ذكرنا آنفًا أن الإنسان لا يخطو الخطوة الأولى على طريق التخلّصِ من عثراته وتقصيره إلا إذا أحسَّ وشعر بها، أما إن رأى نفسَه كاملًا، وأنّ كلّ ما يعمله من أجل الإسلام كاملًا لا نقصَ فيه ولا خلل؛ فاعلموا أنه يغرق بشكلٍ تدريجيّ، وينقل الإمام القسطلاني أن أربعة عشر من الصحابة كانوا يرتجفون خوفًا من النفاق أو أن يكونوا مسجّلين في قائمة المنافقين، وهذا الخوف والقلق علامةٌ أخرى على المدى الرفيع الذي بلغه إيمانهم، وكان عمر بن الخطاب وأم المؤمنين عائشة ﵄ من بين هؤلاء الصحابة الذين يعتلون هذه القِمَمِ.

كان عمر ﵁ من المبشّرين بالجنة، ولكن هذا الرجل العظيم لم يكن مع هذا مطمئنًّا تمام الاطمئنان، مع أنه شرفَ بقول الرسول ﷺ: "**لَو كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ**"[٣١]، ورغم ذلك كان يُناشِدُ حذيفةَ الله مستفهمًا عن نفسه هل هو منهم؟! فعن زيدِ بن وهبٍ ﵀ قال: مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيهِ حُذَيفَةُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَمِنَ الْقَوْمِ هُوَ؟ قَالَ: نَعَم، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: بِالله، مِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: لَا، وَلَنْ أُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا بَعْدَكَ[٣٢].

أما أمّنا عائشة ﵂ فقد دخلت بيتَ النبوة وهي في زهرة عمرها، وما حلّ الذنب ضيفًا على روحها مطلقًا، ولم تعرف رجلًا غير الرسول ﷺ ولم يدُرْ بخيالها رجلٌ غيره، إنّه مظهرُ الكمال والتجلّيات الإلهية، فلم تكن ترى فيه شيئًا غير ذلك، فلقد كانت تشاهد الحقّ سبحانه دائمًا في مرآته المحمّدية، فَتَطَوَّفَ بخيالها في التلال الأخرويّة؛ فتستريح عينُها ويطمئنّ قلبها.

(٣١) سنن الترمذي، المناقب، ٥١.
(٣٢) ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٧/٤٨١.

كان الوحـي يتنزّل على بيتها زخًّا زخًّا، ولـم تكن السـحائب المحمّلة بالإلهامات تنقطـع عن بيتها قطّ. نعم، إنها زوجة الحبيب المحبوب الذي يسـتجدي منه يوسُـفُ الحُسـنَ والجمال، وقد أنشـد الشـاعر على لسانها قائلًا:

فـلو سمعـوا فـي مصـر أوصافَ خدّه

لما بـذلوا في سومِ يوسفَ من نقدِ

لـواحــي زُليـخا لـو رأين جَـبِـينَـه

لآثـرنَ بالقطـعِ القلـوبَ على الأيدِي

أما عبادتها وحساسيّتها فيها فهو من الوضوحِ بمكانٍ، فلم تتخلَّفْ عن صلاةٍ واحدةٍ أو صوم يومٍ واحدٍ خارج الأوقات التي تُعذر فيها المرأة، كما أنها حازت مرتبةَ أحبِّ الناس إلى الرسـول ﷺ، فعن عمرِو بن العاصِ رضي الله عنه أنه سـأل النبيّ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: "**عَائِشَـةُ**" قال: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: "**أَبُوهَا**"(٣٣).

نسـتطيـع ذكـرَ المزيد من هـذه الأمور، والآن ضعـوا كلّ ما قلناه وما يمكـن أن يُقال نُصبَ أعيُنِكم لتفهموا مـدى عظمتِها ثم انظروا إليها وهي تجهش بالبكاء فيسـألها الرسـول ﷺ عن سـبب بكائها كما روى الحسـن عنها رضي الله عنها.

أَنَّهَـا ذَكَـرَتِ النَّـارَ فَبَكَتْ، فَقَـالَ رَسُـولُ الله ﷺ: "**مَا يُبْكِيـكِ؟**" قَالَتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يومَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "**أَمَّـا فِـي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَـدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ**

(٣٣) صحيح البخاري، المغازي، ٦٤.

مِيزَانُهُ أَو يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (سورة الْحَاقَّةِ: ٦٩/١٩) **حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَينَ ظَهْرَي جَهَنَّمَ**"[٣٤].

وهكذا فإن أمّنا عائشة رضي الله عنها -التي نأمل أن تشفع لنا- تبدي كلّ هذه الخشية وكلّ هذا القلق؛ خوفًا من الوقوع في النفاق، فليس هناك عرفان أكبر من معرفة الإنسان لقصوره، وكلّ مَن يعترف بأخطائه وبقصوره يستحقّ التهنئة؛ لأنه من الواضح أنه خطا الخطوةَ الأولى والمهمة على طريق إنقاذِ نفسِهِ وتخليصِها من عيوبِها.

إنّ الصيام والقيامَ والعاطفةَ الجيّاشة والدموعَ هي الأسُس التي تقوم عليها الحياة المعنوية والروحية، ولا شكّ أن هناك أمورًا تجب إضافتها أيضًا كالتضحية بالمال وفريضة الجهاد التي هي من أعظم الفرائض، فهذه أركان السقف المعنوي التي لا يمكن الاستغناء عنها.

فإن مَن يُهمِلُ رُكنًا من هذه الأركان كمَن يؤدّي صلاةً ينسى فيها ركنًا من أركانها؛ لذا فلا يكون على تواصلٍ مع رحمة الله تعالى، فإن أردنا أن نضبطَ أنفسنا على استقبال موجات التردّد من دائرة الرحمة الإلهيّة، وابتغينا التواصلَ التامّ معها؛ فلنُطبِّقْ جميعَ أوامر الله سواء أكانت متعلقة بالحياة الفردية أو العائلية أو الاجتماعية، دون تهاونٍ أو تقصير، وهذا يشبه النتوءاتِ الموجودةَ على المفتاح، فإن حدث خللٌ في نتوءٍ واحدٍ لم تستطِع فتحَ الباب وإن كانت النّتُوءَاتِ الأخرى متطابقة؛ لذا فعلى كلّ مكلّف أن يؤدِّيَ ما عليه في إطار الأسباب دون تقصيرٍ وأن يهيّئ لكلّ قفلٍ مفتاحَهُ المناسب.

(٣٤) سنن أبي داود، السنة، ٢٨.

هذا هو معنى العبودية في الحقيقة. أجل، فالعبوديّة هي إصرارٌ ووقوفٌ وانتظارٌ أمام الباب، على العبد أن يلتزِمَ البابَ منتظِرًا فتحه ولا يُغادره وإن أخذ هذا الانتظار منه العمرَ كلّه، وأن يحتفظ بنفس شوق اليوم الأول دون أن يدعَ للعادة والألفة فرصةً لتقليل شوقه وَوَجْدِهِ، ودون أن تتحوّل عباداته إلى حركاتٍ رياضيّةٍ لا روحَ فيها، هذه هي العبودية الحقّة... أن تتسابق مع الزمن وأنت محمّلٌ بالشوق وبالخوف وبالرجاء كما كنتَ في اليوم الأول، والقرآن الكريم يعلمنا هذا فيقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (سورة الْحَدِيدِ: ٥٧/١٦).

كان الصحابة رضي الله عنهم هم أول مَن خوطِبوا بهذه الآية، فإذا وضَعْنا في اعتبارنا الجوَّ الذي كانوا يعيشون فيه والذي كان يساعدهم على تجديد إيمانهم وكأن مائدةً معنويّةً تنزل عليهم من السماء كلّ يوم، علاوةً على الشدّ المعنوي والتغيُّر الذي يُحدثه هذا الأمرُ في الأرواح؛ لأدركْنا وجهَ مخاطبةِ الآية لنا بهذا الخطاب؛ ذلك لأن الظروف التي يمكن أن تسوقهم إلى الألفة لم تكن موجودةً آنذاك، فالآيات كانت تتنزّل تترى، وكانوا يعيشون الإسلام بنضارته وأصالته، فمثلًا حينما سَمِعُوا يومًا ما صوتَ الأذان لأول مرة هرعوا إلى المسجد استجابة لأنفاسه المثيرة للانفعال، وفي يوم آخر يعلمهم الرسول ﷺ تسبيحًا ودعاءً آخر، وهكذا تبقى مشاعرهم نضرةً ومتجدّدةً على الدوام.

ومع كلّ هذا كانت هذه الآية تُحذِّرهم من قسوة القلب وتدعوهم إلى جَيَشان القلب وسَكْبِ العبرات، فإن لم تكن مشاعِرُنا الداخلية وهمومنا ودموعُنا على المستوى الذي يتطلّبه القرآن منّا وعلى الكيفية التي يرجوها

فعلينا أن نلوم أنفُسَنا في هذا العهد الذي أُهْمِلَ فيه هذا الأمر ولم يعدْ هناك مَن يرعاه، فإن لم نسارع للخدمة من أجل إعلاء الدين الإسلامي المبين أو لا نستطيع ذلك، وإذا لم يفارقْ النومُ أعينَنا جرّاءَ انسحاقِنَا تحتَ صولة الكفرِ وغَلَبَةِ الباطل على الحقّ ولا نحسّ بهمٍّ عميقٍ؛ فليس هناك من يجب إلقاء اللوم عليه إلا أنفسنا؛ لذا يجب على كلٍّ منّا أن يعيب نفسه ويتّهمها.

نحن عبيدُ هذا الباب... باب خدمة دين الله... عبيدٌ لا نريد الانعتاقَ من رِقِّ هذه العبودية، ولا يمكن أن نفارق هذا الباب أبدًا، ثم أيوجد هناك بابٌ آخر نهرع إليه سوى هذا الباب؟! سنظل مرابطين على عتبة هذا الباب بكلّ عناد وإصرار ولن نولّي وجوهنا عنه أبدًا.

هناك قصة رمزية تقول: إن أحد أولياء الله تعالى عبدَ ربَّه سنوات طوالًا، وتربّى على يديه الكثير من المريدين، وكان كلّ مريد منهم يترقّى في المراتب حتى يشاهدَ اللوح المحفوظ ويقرأَهُ، والغريب أن كلّ مريد كان يقرأ في اللوح المحفوظ أن شيخَه شقيٌّ، فبدأ المريدون ينفضّون عنه ويتركونه ولم يبق إلا مريد واحد، فسأله شيخه "لماذا تركَ أصدقاؤك مجلسَنا ولم يعودوا يأتون إلينا؟" فأجابه المريد على خجلٍ: "يا سيدي! لقد قرؤوا في اللوح المحفوظ أنك شقيٌّ، لذا تركوا حلقة الدراسة"، فأجابه الشيخ وعلى شفتيه ابتسامة مُرّة: "يا بني، لقد رأيتُ هذا قبل أن يروه بأربعين عامًا، ولكن قل لي يا بني أهناك باب آخر أستطيع أن أطرقه؟" وعلى أثر كلام الشيخ هذا اهتزت السماء وتغيّر اللوح المحفوظ، وكُتب فيه من السعداء.

ولقد أخصبَ الصحابةُ تربةَ العهود والأجيال اللاحقة، فنشأ الآلاف من أحباء الله تعالى وأوليائه، ولم يترك أحد منهم هذا الباب، ومن هؤلاء إبراهيم بن أدهم ﵀، إذ يقول:

إلهي عبدك العاصي أتاك

مقرًّا بالذنوب وقد دعاك

فإن تغفر فأنت أهلٌ لذاك

وإن تطرد فمن يرحم سواك

كانت الخشية من الرياء أكثر ما يخشاه كبار المؤمنين، ولا شكَّ أن مفهومهم للرياء يختلف عن مفهومنا كثيرًا، ومع ذلك كانت هذه الخشية موجودة لديهم، وكانت هناك طرق معينة للتخلّص منه، أوّلها العلم بأن الله تعالى مطلع على كلّ أفعالنا، وعلى كلّ ما يدورُ بخلدنا أو تُخفيه صدورُنا، ثُمّ عدمُ نسيان هذا أو الغفلة عنه، وأن نكيّف سلوكنا على ضوئه، وألا نبتعد عن الأذكار والأوراد ومطالعة الكتب التي تربي الخشية في قلوبنا، وننظر إليها كأحد الحلول التي توصلنا إلى الهدف المنشود.

وأحيل هذا الأمر إلى الجواب المفصل الذي أجبت عليه في موضع آخر.

التهيئة الفكريّة والتحضير القلبيّ للصلاة

سؤال: ما الذي ينبغي على الإنسان من تهيئةٍ فكريّةٍ عند المثول في حضرة مولاه ﷻ؟ وما الذي يتوجب عليه وهو في هذه الحضرة الإلهية؟

الجواب: أعتقد أن المقصود بالدخول في حضرة الله هنا ذلك الدخول الذي تستلزمه جميع العبادات وخاصة الصلاة، فلو كان هذا هو المقصود في السؤال فالصلاة نفسها دخول ومثول أمام الله، ولقد شُرّف النبي ﷺ في رحلة المعراج بأعظم المنازل وأبهاها بمثوله أمام الله ﷻ، ثم انعكست تلك الحالة العظيمة على منشور ماهيّتنا وتشكّلت في صورة الصلاة.

أجل، إن الصلاة هي أجلّ هديّة جاء بها نبينا ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج، فهي معراج بالنسبة لنا في صورة مُصغّرة، وحتى نشعر بمتعة هذا المعراج ونتشبّع منه أسبغ الله علينا رحمته وأخذنا في حضرته بما فرضه علينا من صلوات خمس في اليوم والليلة، فحظينا بشرف مخاطبته والعروجِ الروحيّ إليه ﷻ.

في رحلة الإسراء والمعراج عرَج النبي ﷺ إلى السماوات العلى، وتحدّث مع ربه مباشرة، ورآه -كما جاء في بعض الروايات- بعيني رأسه على قدر إدراكه دون واسطة أو حجاب أيضًا، ثم جاء لنا بأعظم هدية من الله تعالى وهي الصلاة، وعلى ذلك فهاتان الحادثتان مرتبطتان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا يتعذَّرُ معه التفكير في الصلاة بعيدًا عن المعراج.

أجل، إن الصلاة معراج، بل إنها ثمرة تلك الرحلة المباركة؛ رحلة الإسراء والمعراج.

إن التجار يسافرون ويتجوّلون هنا وهناك، ويعقدون الصفقات المتنوّعة، وعند عودتهم لا يرجعون صفرَ اليدين، وهكذا فعل رسولنا ﷺ، دخل في حضرة مولاه ﷻ لعقدِ صفقةٍ مقدّسةٍ خالدة، وكأن دعوة الحق تعالى له بالمثول أمامه هي بمثابة صفقةٍ رابحةٍ.

وفي هذه الصفقة لم يطلب منا ربنا تبارك وتعالى إلا العبودية والانقياد له، وفي مقابل ذلك تفضّل علينا بالصلاة، وجعلها معراجًا إليه كمعراج سيدنا رسول الله ﷺ، فإن سِرْنا على منهَجِهِ أخذَ بأيدينا وما ضَيَّعَنَا.

إننا في الحقيقة نؤمن به دون أن نراه، وفي مقابل ذلك تقرّ عيوننا برؤيته في الصلاة بمعنى ما.

أجل، إن هناك صفقة، لكنها بعيدة كلّ البعد عن أي نوع من المساومة؛ لأن كل ما وهبه لنا ربنا فضل وإحسان منه تعالى.

إن الله ﷻ أخذ نبيَّنا ﷺ إلى حضرته إحسانًا منه تعالى، وجعله يتحدّثُ باسمنا، وألقى التحيّة عليه، وأرسل لنا السلام عن طريقه، وكما استفاد سيدنا محمد ﷺ من مثوله بين يدي ربّه استفدنا نحن أيضًا، وبناءً على ذلك أصبحت الصلاة ترمز إلى مثل هذا المثول والقرب من الله تعالى.

على الإنسان أن يُقبل على الصلاة وهو مشحون بهذه الفكرة وذلك المفهوم، ومن الأهمية بمكان التهيؤ لهذا الأمر القدسيّ.

قبل كل شيء يلزم الوضوء عند الاستعداد للصلاة، وأحيانًا يحلّ الغُسْلُ محل الوضوء في بعض الحالات، فكلّما غَسَل الإنسان عضوًا من أعضاء الوضوء ارتقى إلى درجة معينة، ونَعِمَ بالنور والحيوية، ولا بدّ أن تُراعى المسافةُ بين غسل كلّ عضوٍ من أعضاء الوضوء؛ حتى ينعم كلّ عضوٍ بالنور والحيوية.

والإنسان يشحذُ روحَه بما يردده من أدعية أثناء الوضوء، وبالمناسبة ثَمّة أدعية أخرى يردّدها الإنسان في طريقه إلى المسجد، يشعر الإنسان بها نتيجةَ قُرْبِهِ شيئًا فشيئًا إلى حضرة مولاه ﷻ.

أجل، إن الفرد بترديده للأدعية كأنه يرتقي في معراج إلى السماء، وهذا باب مفتوح للكثيرين وإن لم يكن للجميع.

كان أمثال زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما عندما يحين وقت الصلاة يصفرّ وجهه ويذبل، وكأنه سيقع مغشيًّا عليه(٣٥).

لأن الصلاة تعني المثول بين يدي الحضرة الإلهية، وكأن الإنسان يقابل الحقّ تعالى وجهًا لوجه.

لنفرض مثلًا أن هناك إنسانًا قُدِّمَ له عرضٌ بالحديث أمام نخبة من الناس حول مسألة تهمُّه، وكانت هذه هي المرة الأولى التي سيقف فيها هذا الشخص أمام تيكَ النخبة عالية المستوى من شتّى طبقات المجتمع، عند ذلك ترى هذا الشخص وقد اصفرّ وجهه، وشحب لونه، وتلعثم

(٣٥) انظر: ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٤١/٣٧٨.

لسانه عند الإقدام على المثول أمام هذه النخبة، فكذلك العبد في صلاته؛ لا بدّ أن يكون انفعاله واضطرابه أكثر ألف مرة من حال ذلك الشخص، ولا بدّ أن يكون على وعي بما يفعله؛ لأن المجلس الذي سيتحدث فيه أبهى وأجلّ من المجلس الذي ضربْنا به المثل آنفًا، بل إنّ البون شاسعٌ ولا سبيل إلى المقارنة بين المجلسين.

أجل، إن هذا الإنسان سيدخل في حضرة مولاه؛ الذي من صفاته أنه "كلّ يوم هو في شأن".

ومن ثم على الإنسان أن يكون على حذرٍ من المسكّنات المهدّئة لانفعاله عند انتقاله بالإلف من صلاة إلى أخرى، فليحذر وليكن من المرابطين الذين ينتظرون الصلاة بعد الصلاة كما أرشدنا إلى ذلك النبيُّ ﷺ(٣٦).

وعلينا ألا ننسى أن سيدنا موسى عليه السلام وهو نبيٌّ من أولي العزم كان يحمل في قلبه مهابةً عظيمةً للحقّ جلّ جلاله، ورغم ذلك قام باستعداد داخليّ قبل المثول بين يدي فرعون، ونَطَقَ وجدانُه سائلًا ربه: ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**﴾ (سورة طَه: ٢٠/٢٥)، وكان يدعو ربَّهُ ويتضرّع إليه أن يرزقه قوّةَ التحمّل والمثابرة.

وهكذا فإن وضوء المؤمن وتوجهه إلى المسجد يشبه الاستعداد الأَوَّلِيّ للدخول على حضرة الله عز وجل، إن العبد بذلك يستحضرُ النبي ﷺ في خياله وكأنه بعد قليل سيقتدي به جماعة في صلاته، ثم يقف في صلاته وهو محمّل بهذا الشعور وذلك الاشتياق، ويتلو ما تيسر من القرآن الكريم في صلاته وكأنه يقرؤه على الله عز وجل، ربما تزعجه أحيانًا

(٣٦) صحيح مسلم، الطهارة، ٤١.

أفكار غير مناسبة حاول دفعها عنه خارج المسجد، لكنه لا يستسلم قطعًا لمثل هؤلاء الأشقياء وقطّاع الطرق، ويستمر في طريقه، وعندما يشعر ألا طاقة له على الوقوف يحني ظهره أمام عظمة الله ويركع، وعند قيامه من الركوع يحاول في وجدانه أن يتلاقى نظره مع نظر الرحمة الإلهية، يحاول ويحاول حتى يشعر وكأن هذا الأمر حدث بالفعل فتنحلّ رابطة ركبتيه من الحيرة، فيهرع إلى السجود؛ وهو أقصى نقطة لقرب العبد من مولاه ﷻ فـ"**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ**"(٣٧)، وبينما الأمم تجثو وتسجد مكرهةً في الآخرة يقوم العبد بتلك الحالة الاضطرارية بشكل اختياري في الدنيا، فيجثو على ركبتيه ويلوذ بربه ويسأله ويتضرّع إليه حتى يمتلئ قلبه ويفيض بأنوار الحضرة الإلهية، وعندما يفعل العبد ذلك في الدنيا ينجو إن شاء الله من أهوال يوم القيامة، فالله لا يجمع بين خوفين ولا بين أمنين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: "**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوفَينِ وَأَمنَينِ إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَومَ الْقِيَامَةِ وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يومَ القيامة**"(٣٨).

وثمّة طُرُقٌ لبلوغ هذا المستوى، يمكننا أن نوردَ بعضَها:

أولًا: دوام التفكّر في الآفاق والأنفس، ومواصلة التفكّر في الآيات التكوينيّة، وإجالةُ مَكّوكِ التفكُّر في الآفاق والأنفس.

أجل، إن التفكر يذهب بالإنسان إلى آفاق السماء المزدانة بالنجوم تارةً، وينفذُ به إلى أعماق ماهيّته تارةً أخرى؛ حتى يُجرّده عن صِفات العُمي والصُّم؛ الذين أَهملوا قلوبَهم وغضّوا الطرف عن لطائفهم الربانية،

(٣٧) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥.

(٣٨) صحيح ابن حبان، ٤٠٦/٢

ومن ثم عاشوا طوال حياتهم كالصمّ والبكم والعمي يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ١٧٩/٧).

إن الإنسان بالتفكر يمكنه أن يكتسِبَ من عبادةِ ساعة ثوابَ عبادةِ ألفِ سنة، فعَنِ الْحَسَنِ قَالَ ﷺ: "**تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيرٌ مِنْ قِيَامِ لَيلَةٍ**"[٣٩] وهكذا تَنْقُلُ الصلاةُ الإنسانَ بهذا الشعور من دائرة الأسماء إلى دائرة الصفات، ومنها إلى دائرة الذات، وكأنها تفتح للإنسان شراعًا إلى الخلود.

ثانيًا: رابطة الموت؛ يعني دوام التفكّر في الموت، وعلى الإنسان عندما يقوم بذلك ألا يجنح إلى الاحتماليات والفرضيات المآلية، بل عليه أن يُفكّر في هذه المسألة وكأن الموت قبالته تمامًا، ويؤكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة فيقول: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥/٣). ويقول بعض المفسّرين في معنى هذه الآية: (كلّ نفسٍ ستذوق الموت يومًا ما)، وهذا برأيي معنى قاصر جدًّا، أما الفهم الأقرب للصواب -والله أعلم- فهو أن كلّ نفسٍ تذوق الموتَ كلَّ لحظةٍ بشعورٍ منها أو بغيرِ شعور.

ومن المناسب أن نوضّح هذه المسألة باختصار:

إننا نموت ونحيا كلَّ لحظة؛ لأننا عبارة عن مرايا تجليات الله تعالى التي تأتي سريعةً ومتتابعةً لدرجة أننا نعتبر أنفسنا نحيا حياةً دائمةً ليس فيها انقطاع، وهذا يشبه تمامًا الصور التي تتحرّك على شريط السينما، فهي تدور وتتحرّك بسرعة لدرجة أننا نشعر وكأنها تتحرّك على الدوام.

---

(٣٩) ابن أبي شيبة: المصنف، ١٩٠/٧.

في الحقيقة إننا نموت ونحيا كلَّ لحظةٍ -وأقصد باللحظة أقلَّ شريحةٍ من الزمن- في ظلّ التجلّيات التي تتأتّى من هذا الفيض الأقدس، فنحن أمام وجودٍ وعدمٍ دائمين، وكأننا في هذه الحالة نجلس فوق عقرب الثواني أو عقرب الدقائق وننتظر كل لحظة أن يرمي بنا إلى الجهة الأخرى مع أول حركة له.

والواقع أن هذه الحالة نتيجةٌ لا مفرّ منها، إذًا فعلينا أن ننظر إلى الموت على أنه حادثةٌ تقع كلّ لحظةٍ وليس حادثةً ستقع في المستقبل، وهذا التفسير يجعلنا على أهبة الاستعداد الدائم للآخرة، وأن نصلي صلاتَنا وكأنها آخرُ صلاةٍ لنا في هذه الدنيا.

ثالثًا: وسبيل آخر وهو أداء الصلاة في جماعةٍ مع المُفْعَمِين بالطمأنينة؛ لأن الصلاة إلى جانب مَن تهبّ النسمات المحمّديّة على أنفاسه حين سجوده؛ لهي وسيلةٌ عظيمةٌ للدخول والانضمامِ إلى جَوّهِ التعبّديّ، ولذا أمرَنا رسول الله ﷺ بالصلاة جماعةً وأوصانا بها؛ لأن شحنة الفرد الداخلية قد لا تكفي لإدراك الطمأنينة على الدوام، أما الجماعة فهي تُغْدِقُ على أفرادها دعمَها المعنويَّ بكلّ ما فيه من طمأنينةٍ وسكينة.

فإذا ما وقفَ الشخصُ في الصلاة بجوار إنسان يسكب العبرات لانَ قلبُه، بل وأجهش بالبكاء أحيانًا، وقد شَهِدَ معظمكم مثل هذا الموقف.

فعندَ الروضة المطهرة والكعبة المشرفة تجدُ مَن يبثُّ فيك الخشوع ويَشْدَهُكَ ويأسرُ قلبك بركوعه وسجوده وعبادته الخالصة.

وهذا ما نفهمه مما تشير إليه الآية الكريمة ﴿**وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: ٢/٤٣)، والحديث الشريف "**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**"[٤٠]، ومن ثم

(٤٠) صحيح البخاري، الأدب، ١٠٤؛ صحيح مسلم، البر، ١٦٥.

علينا أن نحبّ هؤلاء العبّاد، ونسعى للصلاة إلى جانبهم، حتى ننعم بهذا المناخ الذي يبعث على السكينة والطمأنينة.

عن أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رحمه الله أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رضي الله عنها: "كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟ قَالَتْ: مَا كَانَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا"(٤١).

وهكذا علينا أن نقتدي بصلاة رسول الله ﷺ اقتداءً تامًا، وبنفسِ الوقتِ أن نصلّي مع أولياء الله، وندرك ماهيّة عبوديّتهم في قلوبنا.

رابعًا: علينا أن نُصلح صلاتَنا قدرَ المستطاع، بأن نحترم إرادتنا بوضعِها في مكانها الصحيح، ونقوم بما يليقُ بذي الإرادة. أجل، علينا أن نُنَشِّط إرادتنا لنسيرَ بها في الطريق الذي يؤدي بنا إلى الطمأنينة.

ليست الصلاة بالأمر الهيّن حتى نستهين بها كباقي الأعمال الدنيويّة، بل هي أقدسُ الأعمال والنشاطات، فعلينا أن نأخذها على محمل الجدّ ونؤدّيها بحقّها، فلا نهملها أو نتسرّع في أدائها فننقرَها كنَقْرِ الديك حفاظًا منا على أعمالنا الأخرى، بل إن لزم الأمرُ علينا أن نضحّي بأيّ عملٍ في سبيلها.

ولا بدّ ألا ننسى أهمّيّة الصلاة في جماعة، فالجماعةُ عند الحنابلة واجبةٌ وجوبَ عينٍ استنباطًا من الآية الكريمة التي تقول: ﴿**وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٤٣/٢)، وغيرِها من الأحاديث، والشافعيّة جعلوها

(٤١) **صحيح البخاري**، المناقب، ٢٤؛ **صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، ١٢٥.

على الأصحّ المنصوصِ فرضَ كفاية، ورغم أنّ بعضَ الأحناف والمالكيّة يقولون بوجوبها إلا أنّ المعتمد في كِلا المذهبين كونُها سنّةً مؤكّدة[٤٢].

وأخيـرًا أقول إن الصلاة لو أُدِّيـت بطمأنينة مـع مراعاة جميـع أركانها أكسـبت المؤمنَ حظًّا ومتعةً وطمأنينةً لا يجدها في غيرها، ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (سورة الرَّعْدِ: ١٣/٢٨)، لا يتوفّر له في أيّ عملٍ آخر، يكفي أن يشعر الإنسان بهذا الحظّ والشرف وأن يدرك قدر الصلاة وقيمتها.

(٤٢) انظر: الزحيلي: **الفقه الإسلامي وأدلّته**، ٢/٣١٧.

فِتَنُ آخِرِ الزمان: الداءُ والدواءُ

سـؤال: كيـف يكون حالنـا إزاء فتن آخر الزمـان؟ وكيف نحمي أنفسنا؟

الجـواب: إن القرن التاسـع عشـر هو ذلك العصر الـذي أُحْتُلَّت فيه عـدة دول إسـلامية وسُـحقت تحت هيمنـة الأفـكار والنظريـات الباطلة القادمة من الغرب.

ولقـد غـادر المنافقون والظالمـون الأوروبيـون البلادَ التـي احتلّوها مغادرةً ماديّةً بعد أن نثروا فيها البذور المسـمومة لكلّ أراجيفهم الفكرية، ومـن سـوءِ طالِعِنـا أننا نعيش في عصـر ترعرعَتْ فيه هـذه البذور التي لا أصـلَ لهـا فـي صدورنا؛ فأوقَعَتْنـا في حالةٍ يُرثـى لها من الناحيـة الفكرية والأخلاقية، ولقد أحدثت شـرارات الفتن -التي انتقلت عنهم- نارًا هائلةً أحرقت حياة المجتمع وأَتَتْ على الأخضر واليابس، وهذه الفتن بالمئات! وها هو جيلنا الحالي قد بدأ يسأل عن موقفه إزاء هذه الفتن، ولقد أسعدنا وأثلجَ صدورَنا البدءُ في طرح هذا السؤال، وفي رأيي أن هذا ينمّ عن مدى ما وصل إليه شبابنا من وعي.

إن الرعاعَ الذين أنكروا وجود الله ووحدانيته قد أطلقوا سهامهم أولًا وأعملوها في عقيدة التوحيد؛ رغبةً في تلويث العقول حيال هذا الأمر، ونجحوا في ذلك فترةً من الزمن، ولقد عاصر هذا الشعب تلك الفترات التي جعلت إنكارَ الله من قبيل الحداثة والتحضُّر، فاسْتُخِفّ بالدين كلّيّة في ذلك العصر، وامْتُهِنَت المفاهيم التي تُقدّس الدين.

لقد حاول هؤلاء جاهدين أن يمحوا من أرواح الأمة تبعيّتها للقرآن الكريم بشكلٍ ممنهج، وإحلال الكتب الأخرى بدلًا عنه، وسعوا إلى انتزاع الاسم المبارك للنبي ﷺ الذي يتربّع على عرشِ القلوب من صدور المؤمنين وجعْلِ غيره مكانه، بل واخترعوا أماكن أخرى بديلةً في الحج عن الكعبة، وهكذا عملوا على إبعاد الأجيال عن جذورِها الروحيّة وجوهرها بالدفع بها إلى مثل هذه الفوضى الفكرية العارمة، ورغم أن هذه المحاولات لم تؤثّر تأثيرًا كبيرًا في عموم الشعب إلّا أن أكثر الجيل الجديد الغرّ قد انجرف وراء هذا التيار نظرًا لضعفِ إرادته وخَوَر قوته على مواجهة مثل هذه المؤامرات.

وكم من أرواح جرحى! وعقول عليلة! وقلوب حالكة الظلام اليوم بسبب هذه الفتن!... ولا حدّ ولا حصرَ لكمّيّة الارتداد عن الدين، ولقد تفشَّت ظاهرةٌ جنونيّة لم نسمع بها أو نشاهدها في أيِّ عصرٍ مضى؛ فلقد تجرّدَ البعضُ عن أسمائهم رغم أنها أسماء لأشخاصٍ نضحّي بأنفسنا من أجلهم، وتحوّلوا إلى أعداء لمحتوى ومعنى الأسماء التي كانوا يحملونها حتى أضحَوا أبشعَ وأسوأَ من فرعون نفسه.

وفي هذه الفترة أصبحت الدنيا فقط هي المطمع والمبتغى، وحُبِّب إلى الناس كل ما يثير شهواتهم وأطماعهم المادية، وأصبحوا يشترون

بالجنة الدنيا المؤقتة الفانية؛ لأن عموم الأفكار المبتدعة كانت تدور في هذا المحور، فاندفع الجميع بعلمٍ أو بدون علم إلى هذا السباق، فمن آثروا الآخرة وسلكوا سبيلها امتُهِنُوا، أما غيرهم فلاقى كل تعظيم وتقدير، مما زادَ مِن عزوف الناس عن الدين.

فاضطر جيلنا أن يجتاز هذه المرحلة التي أصبحت فيها المرأة نهبًا للناظرين، وشاع فيها الخمر والقمار والرشوة والاحتكار والربا... إلخ. أجل، كل هذا كان فخًّا ومصيدَةً للآخرين، فكان لا بدّ لجيلِنا أن يعبر هذا الطريق الشائك، ولكن الواحد منهم لو نجح في تجاوز عقبةٍ لم يستطع أن يتجاوز أخرى غالبًا، أما المصطفون الذين نجحوا في عبور هذا الطريق إلى الجهة المقابلة فهم أقل من المتوقع، بل هم أقلّ القليل.

إن السبيلَ الوحيدَ لخروجِ الفردِ من البئر والنجاة منها هو الفوّهة نفسها التي تردّى من خلالها، وممن استوعبوا هذه الحقيقة مبكّرًا المرشدُ الكبير في هذا العصر الأستاذ النُّورسي، إذ رأى أنّ من الحكمة أن يبدأ الإصلاح من المواضع التي خرّبها السابقون.

لقد أراد هؤلاء أن يُضرموا نار الفتنة، غير أن الله أبى إلّا أن يطفئ هذه النار التي أوقدوها: ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة يُوسُفَ: ٢١/١٢)، وسَدَّ المنفذ الذي انبعثت منه نيران الفتنة بعدَ أن كادت تصيب العقيدة.

أما بالنسبة للفتن المتعلّقة بالأعمال، والشرارات المتعلقة بالذنوب؛ فسنحاول إطفاء نيرانها أيضًا -بمشيئة الله تعالى- بماء الكوثر الذي استخلصناه من دروس وعبر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وما قرأناه من مؤلفات، غير أننا في هذا الصدد بحاجة ماسة إلى دعم كلِّ

مؤمـن؛ لأن الفتن عندما تهاجـمُ فإنّها تداهمنا كجيش العدوّ العرمرم، مما يُصعِّبُ علينا مواجهتها -بل يستحيل- أفرادًا، فعلينا ألا ننسى أنَّ "**يدَ الله مَعَ الجَمَاعَةِ**"(٤٣).

(٤٣) سنن الترمذي، الفتن، ٧.